حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

حقوق الطبع محفوظة ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أوترجمته
إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن مسبق من الناشر

دار حامل المسك للنشر والتوزيع
الكويت
هاتف ٢٤٩٢٦٣٢١ - ٢٤٩٢٦٣٢٢ - النقال ٦٦٨٩٠٠٧٨ - فاكس: ٢٤٩٢٦٣٢٠
ص. ب ١٢٣٢٦ - الشامية - الرمز البريدي ٧١٦٥٣
Websit: www.hamel-almisk.com
E.mail: info@hamel-almisk.com

البلاغة القرآنية

في مقاصد السور الغائية

عدنان عبد القادر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرورأنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾(١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾(٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾﴾(٣)

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي

(١) آل عمران

(٢) النساء

(٣) الاحزاب.

محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن خير ما تنفق فيه الأوقات ويتنافس فيه أصحاب الهمم والمروءات العلم بالله تعالى وبكتابه، فهو أحق ما صرفت إلى علمه العناية، وبلغت في معرفته الغاية. فقد أودع الله فيه من أصول الاعتقاد وقواعد الشريعة والأحكام والحِكم وفنون العلوم وأصول الفضائل ما به قوام الملة الكاملة، والأمة الفاضلة، والدولة الراشدة، وما به سعادة الخلق في الدنيا والآخرة[1].

فكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده ويستفرغ وسعه في الانكباب عليه وتدبره بمعرفة مقاصد سوره، وارتباطها وتعانقها، ومعرفة محاورها وتآلفها.

إن بعض القرآن آخذ بأعناق بعض في تأليف محكم، حاله حال البناء المتين المتلاحم الأجزاء، وكالكلمة الواحدة، متسق المعاني منتظم المباني، ومن محاسن الكلام عند الأئمة أن يرتبط بعضه ببعض.

(١) انظر مقدمة صفوة البيان للشيخ حسنين مخلوف.

ولما قل تداول المفسرين لمقاصد السور وتآلفها إلا ما ندر، وأن الغالب من هؤلاء النوادر إذا ذكروا مقصد السورة جعلوا مجموعة من مواضيعها ومادتها هي مقصدها، بينما هذه المواضيع المذكورة سيقت في السورة لتحقيق مقصدها. لذا سألت الله تعالى مفتقراً إليه أن يعينني في معرفة مقصد كل سورة، فاستعنت بالمولى جل في علاه ثم بكتب علماء المسلمين رحمهم الله تعالى رحمة واسعة ثم بالحوار مع طلبة العلم المسترشدين إلى أن جمعت شيئاً من مقاصد السور ومحاور كلّ سورة على حدة.

ولما كان تفريغ ذلك يحتاج إلى وقت طويل، فقد تأتي المنية قبل الانتهاء من تفريغه، ثم لعزوف الناس عن قراءة الكتب المطولة، ولرغبتي في إيصال هذه المقاصد إلى عموم الناس آثرت أن أختصر ما جمعته في رسالة تشير إلى مقاصد السور وشيئاً مما يدل عليها من آياتها ومحاورها.

فأرجو من الله تعالى أن ييسر ما قصدت، ويوفق لما أردت، فإنه المأمول وحده والمسؤول ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وينفع به عموم المسلمين إنه جواد كريم.

ترتيب سور القرآن توقيفي

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في ترتيب سورالقرآن هل هو توقيفي من قبل الشارع، أي أن النبي ﷺ بأمرٍ من الله تعالى رتب السور كالترتيب الموجود في المصحف العثماني؟ أم باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم؟ أم أن بعضه رتب من قبل الشارع وبعضه الآخر اجتهد فيه الصحابة رضي الله عنهم؟

الصحيح في ذلك - والله أعلم - أن جميعه مرتب من قبل الشارع أي توقيفي. لأن المصحف العثماني كان موافقاً للعرضة الأخيرة التي عارض جبريل النبي ﷺ قبل وفاته، ولورود الترتيب عن النبي ﷺ بعض السور بأسانيد صحيحة كالبقرة وآل عمران والنساء، وكذا الجمعة والمنافقون، والأعلى والغاشية، والمعوذات الثلاث، وغيرها من السور. ولورود الحديث في ترتيب السبع الطوال ثم المئين ثم المثاني ثم المفصل، ثم إجماع الصحابة رضي الله عنهم والأمة على المصحف العثماني. وإقرار

الصحابة رضي الله عنهم لهذا الترتيب مع شدة حرصهم على أن لايفعلوا شيئاً بالقرآن لم يفعله رسول الله ﷺ، ثم المناسبة بين السور واضح. ولأن القرآن محفوظ، ولابد أن يكون النبي ﷺ قد قرأه بترتيب معين، ولا يقال بأن الترتيب النبوي لم يُحْفَظ إذ تكفل الله تعالى بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ .

❑ خطة الكتاب

أحببت في هذه الرسالة أن أورد مقصد كل سورة على وجه الإيجاز. وقد أذكر بعض الأدلة الدالة على المقصد المذكور وشيئاً من محاور السورة لتأكيد صحة ذلك المقصد.

ثم أربط مقصد كل سورة بمقصد السورة التي قبلها ومقصد التي بعدها ليظهر التناسب بينها وأنها عقد واحد تناسقت درره، وتلاحمت أطيافه، وتعانقت سوره.

وقد تقرأ فيها عبارات تتضمن الجزم بأن هذا هو مقصد السورة، فهذا ما بدا للكاتب وغلب على ظنه،ولا يقتضي أن يكون قطعياً عند الله تعالى. لأن غلبة الظن في الشريعة لها حكم اليقين كسائر الأحكام القضائية والشرعية، فكذا المقاصد المذكورة ما هي إلاغلبة ظن عند الكاتب.

وتمت بحمد الله في الخلق سهلةً ... منزهة عن منطق الهجر مقولا

ولكنها تبغي من الناس كفأها ... أخا ثقة يعفو ويغضي تجملا

وليس لها إلا ذنوب وليها ... فيا طيب الأنفاس أحسن تأولا

وقل رَحِم الرحمن حيا وميتًا ... فتى كان للإنصاف والحلم معقلا

عسى الله يدني سعيه بجوازه ... وإن كان زيفا غير خاف مزللا

فما كان فيها من صواب فمِن الله تعالى وحده، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، والله يعفو ويغفر. وقد أخبرنا نبينا محمد ﷺ: «إن الله تعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»[1].

فاللهم حنانيك ولطفك بعبدك قد أناخ ببابك، قائماً منكسراً بين يدي جلالك يرجو رحمتك وعفوك.

فيا خير غفار ويا خير راحم ... ويا خير مأمول جدًا وتفضلا

أقل عثرتي وانفع بها وبقصدها ... حنانيك يا ألله يا رافع العلا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) رواه البخاري (٧٥٥٤).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

استهل القرآن بسورة **الفاتحة** التي لخصت أصول دعوة الإسلام. أولها «شهادة أن لا إله إلا الله» وهي توحيد الله بربوبيته ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، وتفرده بكمال الأسماء والصفات، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ وتفرده بالتأله والتعبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ . ولا يعرف هذا التوحيد إلا بالأصل الثاني وهو متابعة النبي ﷺ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ليجللنا الله تعالى بثمرة ذينك الأصلين وهي تزكيته والفوز برضاه بدلاً من غضبه، وهدايته بدلاً من الضلال ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، وهو الأصل الثالث.

فانقسم الناس إلى ثلاث فرق من هذه الدعوة المباركة، دعوة التوحيد والتأله لله وحده، دعوة بذل كمال الحب لله تعالى مع كمال الذل له، دعوة لا إله إلا الله. أما الفرقة الأولى فآمنت ووحدت واهتدت فأفلحت، فاستهلت بها سورة البقرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

أما الثانية فكفرت وعاندت، وجاهرت بكفرها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ ، فلعنت وطردت، واستحقت العذاب العظيم. وأمثل مثال لهم إبليس ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ .

والثالثة تلونت ونافقت وخادعت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨﴾ ، فأظهرت الإيمان وأبطنت الكفر ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ ، ففضحت ولحقت أختها الكافرة. وأمثلهم نفاقاً اليهود من بني إسرائيل ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ .

وبالفرقة الأولى ختمت السورة ختام مسك كما ابتدأت بها. وأمثلهم اثنان خليل الله إبراهيم ﷺ ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾، ثم سيد البشر وخاتم النبيين وخليل الله تعالى محمد بن عبد الله ﷺ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ .

وهذا مقصد سورة **البقرة**: تأصيل «لا إله إلا الله»، وهو الشطر الأول من الشهادتين، ثم بيان أصناف الناس منه.

من التحق بالفرقة الأولى لا بد له من قائد معلم هادٍ، يوضح الطريق، والقادة المعلمون هم الرسل. وأولى الرسل بالمتابعة هو رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فهو أحب البشر إلى الله تعالى. وهذا مقصد سورة **آل عمران**: متابعة سيد البشر محمد رسول الله ﷺ، وهو الشطر الثاني من الشهادتين «أن محمداً رسول الله»، والأصل الثاني لدعوة التوحيد المباركة.

دعوة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» ينبغي أن تصبغ أتباعها بالطهارة والزكاء، ويتحلى أصحابها بالدرجة الفضلى من الأخلاق، ويحوزوا على معاليها. لذا عليهم أن يتعاملوا مع بعضهم كأنهم إخوة أشقاء في النسب بأسمى صورالأخوة، لتكون أمة التوحيد متلاحمة لاتخترق، وليكونوا دعاة خير للأمم الأخرى لينضموا معهم في الطريق الإلهي. وهذا مقصد سورة **النساء**: الدعوة إلى التزكية والأخلاق.

لذا ابتدأت هذه السورة ببيان أن الناس كلهم إخوة من أب واحد وأم واحدة، من رحم واحد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ

ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ﴾ ، وانتهت بالأخوة ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾ . فالتزكية والأخلاق هو الأصل الثالث لدعوة التوحيد المباركة.

هذه الأصول الثلاثة لخصها رسول الله ﷺ بقوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[1]. وهو فحوى قول النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[2].

الدخول في دعوة التوحيد المباركة يعني عقد الميثاق مع الله تعالى للحفاظ على الأصول الثلاثة لدين الإسلام وهي: التوحيد والاتباع والتزكية، فيجب الالتزام به. لذا استهلت سورة المائدة بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ . وسوف يحاسب العباد يوم القيامة ويسألون عن هذا الميثاق الإلهي وعلى

(١) رواه البخاري ٢٥

(٢) رواه أحمد ١٥٣/٥، ٢٣٦ والترمذي ١٩٨٧ وصححه.

رأسهم الرسل ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ ، وآخرهم وفاةً رسول الله عيسى عليه السلام، وسيسأله الله تعالى عن هذا الميثاق: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ، وبهذا الحدث ختمت السورة. وهذا مقصد سورة **المائدة**: الوفاء بالميثاق الإلهي على الأصول الثلاثة.

هذا الميثاق الإلهي قام على قواعد ثابتة، وأدلة صحيحة، وحجج دامغة لإثبات صحة دعوة التوحيد وتفرد الله تعالى بالألوهية. أول هذه الحجج وأوضحها: تفرده بخلق هذا الكون المشاهد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ . فمن جمع هذه الحجج وتسلح بها علم يقيناً أنه على الطريق المستقيم، وتغنى بلسان مقاله قائلاً: ﴿إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾. لذا تجد محبة الله قد تخللت شغاف قلبه، وملكت سويداء فؤاده، واستوى حب الله على عرش قلبه، فلبى له بلسان حاله: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾. وهذا مقصد سورة **الأنعام**: ذكر الحجج الباهرة، والأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على ألوهية

الله تعالى وحده، وذكر فيها ثلاثة عشر دليلاً.

إذا ما اعتقد العبد هذه العقيدة الصافية وتسلح بها بالحجج الباهرة فلا بد وأن يدعو إليها، وينذر الناس بها ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾. من أجل ذلك أرسل الله الرسل لينقذوا الناس من حبائل إبليس وزيغه، وشباك الشياطين ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ولكن الرسل والدعاة سيتعرضون لألوان من الأذى من قبل أعدائهم، بل ومن قبل أتباعهم، هذه سنة الله تعالى في الرسل والدعاة. فالنذارة والرسالة تحتاج إلى الصبر والتحلي بمجموعة من الوصايا ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾. وعليهم الاستعانة بالله تعالى إلى أن يرتقوا بالبشر إلى مقامات عليا في الطهارة والنقاء ليقتربوا من صفوف الملأ الأعلى، صفوف الملائكة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾، حينئذٍ يباهي الله تعالى بهم الملائكة. وهذا مقصد سورة **الأعراف**: فيما يتعلق بالرسالة وإنذار الناس ودعوتهم للارتقاء بهم، وما هي بدايتها؟ وما قصة الشرك؟ وما سبب إرسال الرسل؟ وما الفوائد المترتبة من إرسالهم؟ وما هي المراحل التي

سيواجهها الرسل من قبل أعدائهم، ثم من قبل أتباعهم؟ ثم وصايا وقواعد في تبليغ الرسالة.

الدعوة إلى التوحيد وإلى الإسلام تحتاج إلى الجهاد بالمال لفوائد جمة. لذا ينبغي أن ينظر إلى المال إلى أنه وسيلة وليس غاية. فهو وسيلة ليتآلف أفراد أمة الإسلام، ويصلحوا ذات بينهم ولو بالتنازل عن بعض حقوقهم المالية، لتبنى أمة قوية مرصوصة البنيان بإذن الله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ .

ثم إنفاق الأموال في جميع الوجوه التي تدعو إلى الدخول في دين الله تعالى ونصرة هذه الدعوة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ . وهذا مقصد سورة **الأنفال**: وهو الدعوة إلى الجهاد بالمال، وأنه وسيلة وليس غاية، وما هي أفضل الأعمال التي تحصّل بها الأموال؟ وأن المال سلاح ذو حدين، وما هي أفضل مجالات إنفاق الأموال؟

وكما أن دعوة التوحيد تحتاج إلى الجهاد بالمال فهي تحتاج كذلك إلى الجهاد بالنفس. بيان ذلك أن هذه الأمة لتكون صافية

نقية يتطلب منها البراءة من أعدائها. وهذا يعبئ ضدكم قلوب أهل الكفر ويقودهم إلى قتالكم. لذا لا تنتظر مباغتتهم لك بالقتال، بل أعلن الجهاد بنفسك، وكن معهم على سواء ووضوح في العلم بالقتال، وارفع راية الجهاد ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ .

حينئذ يفتضح المخادعون المتلونون المنافقون، وتظهر عوراتهم وخباياهم ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ ، ذلك لتبقى هذه الأمة نقية طاهرة من الأدناس والرجس.

وعند البراءة من الكفار والمنافقين وإعلان جهادهم لا ينفعكم حينئذ إلا التوكل على الله تعالى، والله ناصركم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ . وهذا مقصد سورة **التوبة**: البراءة من الكفار والمنافقين وجهادهم بالنفس.

البراءة من الكفار والمنافقين وجهادهم يؤدي إلى نصب العداوات في العالم ضدكم، بل يقودكم إلى الشعور وكأنكم وحدكم في هذا العالم، مما يؤدي إلى حملة عالمية واسعة

للتشكيك في دعوة التوحيد، واتهامات لا قبل لكم بها. أولها اتهام قائدها، والتشكيك فيه لإسقاطه، فإذا سقط سقطت الدعوة. ولكن اعلموا بأن هذه الدعوة لا تسقط بإذن الله تعالى، فهي قائمة على قدم راسخة رسوخ صدق لا يزعزعها التشكيك ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ .

ومن عظم حملة التشكيك الواسعة أن قد يظن الظان أن المؤمن قد شك في دينه، وليس كذلك ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ . فعليكم بالصبر والتمسك بالدين والانتظار، ففي نهاية الأمر سيتهاوى الأعداء المشككون. بل هم أنفسهم سيرفعون راية الاستسلام، ويعلنون صراحة صحة هذه الدعوة المباركة وأنه لا شك فيها، كما فعل قائد حملة التشكيك الواسعة وهو فرعون، إذ أعلن أمام جموع بني إسرائيل وجموع جنوده وأمة الفراعنة قائلاً: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ .

لذا قل للعالم أجمع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾. وهذا مقصد سورة **يونس**:

توقع حملة التشكيك الواسعة من قبل الأعداء ومواجهتها، وما سبب تشكيكهم، ومآله، وتثبيت المؤمنين إزاءها بأحد عشر مثبتاً.

أيها الدعاة اثبتوا على ما أنتم عليه، فأنتم على أمر محكم ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾، ومآلكم إلى المتاع الحسن في الدنيا قبل الآخرة ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾، وإن أصابتكم الأحزان والآلام وضاقت صدوركم لما لقيتموه من العالم ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾.

ومآل أعدائكم في الدنيا إلى الخسران، والهلاك، والإبعاد واللعنة، والخزي، وانقلاب أمورهم من أعاليها إلى أسافلها كأن لم يغنوا في الدنيا. أما في الآخرة فاللعنة وورود النار ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾.

بينما مآلكم أنتم إلى السعادة والخلود فيها. فاثبتوا على ما أنتم عليه من الاستقامة والصلاة والعبادة، واصبروا على ذلك، فأنتم بقية الله في الأرض، وخيرة خلقه، فالله تعالى غير غافل عنكم، فأنتم في عينه ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ

وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ . وهذا مقصد سورة **هود**: مواساة دعاة التوحيد بثمانية أنواع من المواساة، لتثبيتهم على ما هم عليه ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ .

مما يهون من الضغط النفسي والثقل الناتج من مواجهة العالم وجهاد الكفار والمنافقين والبراءة منهم، ويهون من حملات التشكيك الواسعة، ويعين على المواساة من معاناة الآلام والأحزان هو الطيران في سماء محبة الله تعالى، وبذل المهج له، والتمرغ بين يدي عظمته بشتى الطرق الشرعية الدالة على محبته سبحانه، وهي تدور حول اثنين وعشرين طريقاً. منها أن تحافظ على السر الذي بينك وبين من تحب ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ ، لاسيما السر الذي بينك وبين الله تعالى في محبتك له.

ثم الاستمرار في التملق في محبته بجميع الوسائل، حتى إذا دانت الدنيا للمحب واجتمع شمله انفرد مع محبوبه، مع الله تعالى مناجياً: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾، إذ لا يشعر العبد بكمال السعادة إلا بمصافاة محبوبه

الأعلى. هذا مقصد سورة **يوسف**: كيف تعيش مع الله تعالى، كيف تتعامل مع من أحببته وتعلقت به.

إذا سرت في طريق المحبة المرسوم لك المبني على الأصول الثلاثة، حينئذ تشعر بالأمن القلبي والراحة والاطمئنان الذي فقده أكثر الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. تعيش باطمئنان تام، وسعادة روحية، وعيش طيب لا مثيل له في الدنيا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾. ويزول عنك الاضطراب مهما كاد لك الخصوم والأعداء، ويتهاوى أمامك الكيد العالمي ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾. وهذا مقصد سورة **الرعد**: تحقق الاطمئنان القلبي والسعادة الروحية بمحبة الله تعالى.

إن سمة محبة الله تعالى وعلامتها وسبيل الاطمئنان هو دوام ذكر الله تعالى. فبدوام ذكر الله تعالى يخرج العبد بإذن الله من الظلمات إلى النور، ليرى بهذا النور صراط العزيز الحميد، طريق عزته ومجده، فيذكر الله تعالى ذكراً لسانياً صادراً عن القلب ليتطابق اللسان مع القلب. والذكر اللساني لا يقتصر به على نفسه، بل

ويذكّر غيره ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم﴾. فيلهج بذكره، ويستمتع بذكر اسمه دوماً كما فعل إبراهيم الخليل ﷺ (رب- ربنا- ربي- الله- لله- لسميع)، فيتلذذ بتكرار اسمه على لسانه لما فاض به قلبه من المحبة، وإلا أتى يوم القيامة وفؤاده هواء، خاوٍ لا خير فيه ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ .

فعليه أن يذكّر نفسه بالله وتوحيده وبالمحبة والعبودية ويذكّر غيره كذلك بجميع طرق الذكر ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾﴾. هذا مقصد سورة **إبراهيم**: دوام ذكر الله تعالى بالقلب واللسان والجوارح، فهو علامة المحبة وسبيل الاطمئنان.

إذا ما حقق العبد ذلك فإنه محفوظ بحفظ الله له. فكما حفظ القدر مكتوباً، وحفظ الله القرآن مكتوباً ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ ، وتكفل بحفظ القرآن وحفظ هذه الدعوة في الأرض ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ ، فكذا تكفل الله تعالى بحفظ الدعاة إلى التوحيد. ولذا كلما ألقيت نفسك في جوار الله تعالى حفظك الله عز وجل ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ . فتمسك بهذا التوحيد واستمر في الدعوة إليه إلى أن يتوفاك الله تعالى ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ ، ليحفظك الله بحفظه. وهذا مقصد سورة **الحجر**: حفظ الله تعالى لعباده المخلصين.

إن جميع المصائب والآفات والعقوبات مؤتمرة بأمر الله تعالى، سواءً كانت الآفات قلبية أم نفسية أم كآبة أم ضيق صدر، أم عقوبات إلهية عامة أو خاصة، أم كانت من نزغات شياطين الجن والإنس. فاستمرار حفظ الله تعالى لعبده من جميع الآفات المستقبلية يتطلب أمرين اثنين: الشكر والصبر. وإلا فإن أمر الله تعالى بحلول الآفات والعقوبات آت وواقع لا محالة ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ .

لذا على العبد أن يشكر الله تعالى على نعمه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . أما الأمر الثاني بعد الشكر فهو الصبر، فليتذرع بالصبر والثبات على أمر الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

فخير قدوة لكم في الصبر والشكر إبراهيم الخليل ﷺ الذي كان أمة وحده، إذ صبر وحده على كلمة التوحيد وتحدى قومه كلهم، وكان

شاكراً لله تعالى ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾. فتذرعوا بالشكر والإحسان من جهة، والصبر والتقوى من جهة أخرى في جميع الأحوال لتفوزوا بمعية الله تعالى ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾. وهذا مقصد سورة **النحل**: التذرع بالشكر والصبر لتدوم النعم، ويدوم الاطمئنان القلبي والحفظ من الآفات والعقوبات.

من قابل النعم الإلهية بالشكر والصبر فإن الله تعالى سيختصه لنفسه، وسيكرمه بخصائص ومعجزات وكرامات ورفع المكانة والقدر بما لم يخطر على قلبه. وخير مثال لذلك حادثة الإسراء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ . وأعظم هذه الخصائص اختصاصك يا رسول الله واختصاص أمتك بهذا القرآن ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ .

ومن أعظم علامات الاختصاص الإلهي أن يكرم الله تعالى عبده بالالتصاق التام بهذا القرآن آناء الليل وأطراف النهار، وتدبره، والسجود لعظمته ومعجزته، والبكاء فرحاً به وخشوعاً، والقيام به لا سيما في صلاة الفريضة وبالأخص صلاة الفجر،

ثم صلاة التهجد وهي أزكى صلاة النفل ﴿... وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾. وأسمى علامات الاختصاص إكرام العبد بالتعرف على أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، ودعاء الله تعالى بها وعبادته بها لتصبح ديدنه، ثم اللهج الدائم بهذا الذكر العظيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ الذي كلما عملت به زادك الله اختصاصاً. هذا مقصد سورة **الإسراء**: توالي الاختصاصات والكرامات الإلهية لمن تمسك بدعوة التوحيد.

إذا ما أكرم الله تعالى عبده بالاختصاص والكرامات فلا يظنن العبد أنه لن يتعرض للاختبارات والفتن والابتلاءات، بل أمامه فتن ست سيواجهها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ . منها فتنة الظلم والقهر من قبل أعداء الدين، كما فتن أصحاب الكهف.

والفتنة الأخيرة فتنة الجاه والمنصب كالتي ابتلي بها ذو القرنين فنجح، إذ استعمل منصبه في طاعة الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. من نجا من هذه الفتن الست فاز بلقاء الله تعالى يوم القيامة اللقاء الحسن.

وجماع الأمر للنجاة من جميع هذه الفتن العمل الصالح الموافق لهدي النبي ﷺ مع الإخلاص لله تعالى فيه ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. هذا مقصد سورة **الكهف**: تعرض المؤمن للاختبارات والفتن الست، فليستعد لها.

الله رحيم بعباده. ففي خضم الابتلاءات والفتن التي يتعرض لها العبد في دعوته إلى الله تعالى فإن الله تعالى يرحم عبده بإرسال المبشرات التي تخفف عنه آلامها، وتبث فيه روح الأمل والفتح القريب والنصر المؤزر والفرج العاجل. بل ويسمع كلمات مبشرة لأمور غير متوقعة ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ لتبث فيه روح التفاؤل.

فالبشارات متحققة للموحدين في الدنيا وكذا في الآخرة ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ . هذا مقصد سورة **مريم**: بث البشارات في خضم الفتن.

ومن الطرق النافعة للتخفيف من شدة الفتن الواقعة عليك أن تسلك القواعد الصحيحة في الدعوة إلى الله تعالى. منها أن تتدرج في الدعوة، وتتودد إلى المدعو بألفاظ وكلمات جميلة كأن تقول له ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ، والقول اللين ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ .

ومنها أن تبدأ الدعوة بأهلك أولاً ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾. ثم انظر إلى ثمرة الدعوة بعد استعمال تلك القواعد الدعوية الواردة في السورة ستجدها طيبة يانعة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. هذا مقصد سورة **طه**: معرفة وسائل الدعوة، والقواعد الصحيحة لها، وأسباب فشلها.

ومن قواعد الدعوة إلى الله تعالى أن تحسن صياغة الحجج لإثبات صحة ما تدعو إليه. على سبيل المثال موضوع البعث، كيف تدعو الناس إلى الإيمان بالبعث وتنبههم من غفلتهم عنه؟ لذا ابتدأت سورة الأنبياء بذكر البعث ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾، واختتمت بالبعث ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾. وهذا مقصد سورة **الأنبياء**: كيف تصيغ الحجج لإثبات صحة ما تدعو إليه، كإثبات البعث على سبيل المثال.

إن الأمة التي تتميز بتقوى الله تعالى، وتحمل على عاتقها دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، وتخشى الله تعالى، وتجعل نصب

عينيها يوم البعث يوماً للمحاسبة على مدى الالتزام بهذا الميثاق الإلهي لهي الأمة المصطفاة المجتباة. ويتجلى اصطفاؤها يوم ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ . فمن أكرمه الله تعالى بتقواه وعبادته وحده وأكرمه بأخص مظاهرها وهو السجود له والدعوة إلى ذلك فهو المكرم المصطفى المجتبى، ومن لم يهده لذلك فهو المهان ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ .

لذا اجتبى الله تعالى أمة الإسلام، أمة التوحيد، أمة الدعوة ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ . وهذا مقصود سورة **الحج**: اصطفاء الله تعالى لمن دعا إلى توحيده والإيمان بالبعث. فهي السورة الوحيدة التي وردت فيها سجدتان، والسجود لله تعالى أعظم كرامة يكرم بها العبد.

إن المصطفى والمجتبى ذو الكرامة هو الذي دائماً يسعى لأن يرتقي في إيمانه إلى المعالي ليفوز بأعلى درجات الفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ ، ليرث الفردوس الأعلى التي سقفها عرش الرحمن. وضده من سلك طرق الهلاك ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ .

فروح المؤمن تجدها دوماً تعرج إلى السماء، ترتقي في طبقات العلو، تحوم حول ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ ، لتنال الفوز والفلاح ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ، تتقلب في مغفرة الله ورحمته، ديدنها ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ . هذا مقصد سورة **المؤمنين**: الحرص على الترقي في مراتب الإيمان للفوز بأعلى درجات الفلاح.

قد يحرص العبد على أغلب الأمور السابقة ومع ذلك ربما لا يُرى على وجهه نور، بل تجد الظلمة قد علت وجهه، ذلك إذا ضيع العفة، وغفل عن قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فاقتحم جب الزنا، أعاذنا الله منه، فافتتحت سورة النور بـ ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ .

فإذا تجللت الطاعة بالعفة وسلوك طرقها فإن الله تعالى سيمنح عبده نوراً ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . هذا مقصد سورة **النور**: إذا أردت أن تجلل بالنور الإلهي فعليك أن تجلل طاعاتك بالعفة وطرقها العشرة، وما يتسامح فيه مما لا يتعارض معها.

من أكرم بنور الله تعالى استطاع أن يفرق بين الحق والباطل، والنافع والضار، فأعظمهم نوراً أعظمهم فرقاناً. فسيد البشر في ذلك هو رسول الله ﷺ الذي نزل عليه هذا الكتاب، وأكرم بهذا

الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾. هذا مقصد سورة **الفرقان**: كيف الحصول على الفرقان، وما هي صور الفرقان، وما هو ثوابه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥﴾ .

والذي يكرم بالنور والفرقان له جاه عظيم عند الله تعالى، بينما الذي لا نور له ولا فرقان لا يعبأ الله تعالى به مهما أوتي من ملك أو كيد أو شرف أو نسب أو قوة بطش أو تقنية أو أصل أو مال أو بلاغة، وكان من الخاسئين ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ .

إنما يعبأ الله تعالى بمن آمن بالقرآن وامتلأ قلبه به ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ، فيعبأ بقلبك، يعبأ بك أنت ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨﴾، ويعبأ بمن آمن بك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ . هذا مقصد سورة **الشعراء**: أن الله تعالى لا يعبأ إلا بمن تمسك بهذا التوحيد، ولا يعبأ بمن كفر به مهما علا في الأرض.

وإذا أردت أن تستمر عناية الله بك ويعبأ بك فعليك دوماً أن تعتني بكلام ملك الملوك، كلام الله تعالى وهو القرآن، وعليك أن تتأدب معه ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ . وحسبك أن الله تعالى أكرمك بأن تفهم كلامه. ألم تعجب من فهم نبي الله الملك

سليمان عليه السلام لكلام الطير ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ ، وكلام النمل ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ ؟! فأين نعمة فهم كلام الله تعالى من فهم كلام الطير والنمل؟ ومن فهم كلامه رأى فيه العظمة والجلال فاستدعى تعظيمه.

ثم حسبك أن تعلم أن القرآن كلامه، فكلام الملوك يوجب التعظيم. ألم تر كيف عظمت بلقيس ملكة سبأ كلام نبي الله الملك سليمان عليه السلام؟ فعليك أن تعظم كلام الله وكتابه أشد من تعظيم بلقيس لكتاب نبي الله الملك سليمان عليه السلام. ثم كيف تعظمون كلام الدابة التي ستخرج لتخاطب الناس بلغتهم ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ ولا تعظمون كلام الله تعالى الذي خاطبكم فيه بلغتكم؟

فتمسكوا بكلام الله تعالى، وتدبروه، وتأدبوا معه، وعظموه، واتلوه آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾. وهذا مقصد سورة **النمل**: التأدب مع القرآن كلام الله تعالى وتدبره وتعظيمه.

ومن عظّم كلام الله تعالى وصدَّق وعده الوارد فيه وعمل به وألقى بنفسه في جوار الله تعالى تصديقاً بوعده فاز بالتمكين في

الأرض والاستقرار، ولو كان مستضعفاً أشد أنواع الاستضعاف ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، وإن هُجِّر وأخرج ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ . ومن أساء الأدب معه وأعرض عنه واستهان بوعده عوقب بالهزيمة والاندحار والذل والبوار، وإن كان ظاهره الاستقرار والتمكين لما أوتي من جاه عظيم كفرعون، ومال وفير كقارون. وهذا مقصد سورة **القصص**: التمكين والاستقرار لمن وقر كلام الله تعالى وعمل به وصدّق وعده الوارد فيه وألقى بنفسه في جواره، والعكس بالعكس.

لكن الطريق غير مفروش بالورود، إذ لا بد من التعرض لألوان من الفتن والابتلاءات الداعية إلى الكفر ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ .

ولا بد من جهاد النفس لتجاوز تلك الفتن والاستمرار على اليقين ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ . هذا مقصد سورة **العنكبوت**: أن طريق التمكين تتخطفه الفتن والابتلاءات فلا بد من المجاهدة.

واعلموا أن وعد الله تعالى بتمكين المؤمنين وحفظهم من الانغماس في الفتن والغرق في الابتلاءات بعد جهادهم أمر متحقق ولا بد، وأنه سنة من سنن الله الكونية ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ . فعليكم بالصبر، فإن وعد الله متحقق ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾، وهذا مقصد سورة **الروم**: الأدلة على تحقق وعد الله تعالى بالنصر، وسبب تأخيره، ومتطلباته، ومبشراته.

واعلم بأن وعد الله تعالى جزء من كلامه الكوني القدري الذي قدره في الأزل، وجعل له موعداً لحكمة هو يراها، وأن وعده وإن تأخر فإنه لا يتأخر إلا لحكمة وهداية ورحمة، ويشتمل حينئذ على منافع كثيرة، لأن كلام الله تعالى كله حكمة ورحمة سواء كان كلاماً قدرياً أو كلاماً شرعياً ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ . بعكس كلام أهل الباطل الذي يغلب عليه اللهو والعبث والسخافة والضلال والتلبيس والسخرية، كلام باطل لا منفعة فيه.

وقد جعل الله تعالى لوعده علامات يتفطن لها الحكيم، ولكن لا يعلم تحديده إلا الله تعالى لحكمة هو يعلمها. كما أنه لا أحد من

الخلق يدري متى الساعة، ولا متى زمن نزول الغيث، ولا مواقع قطراته على وجه الدقة، وكذا النفس لا تدري بأي أرض تموت ولا في أي ساعة تهلك، فقدّر جميع ذلك لحكمة، وجعل لجميعها علامات. وكل ذلك مساق إلى موعود الله تعالى الذي ملئ حكمة وجلالاً، لذا تكرر في السورة حرف ﴿إِلَىٰ﴾. هذا مقصد سورة **لقمان**: أن كلام الله تعالى ووعده ملئ حكمة.

إن من صفات الحكيم الحلم. فمن حكمة الله تعالى في عباده الحلم والتأني وعدم معاجلة العقوبة، لا سيما في تحقيق وعده بنصر أوليائه وعقوبة أعدائه. فعليك بالحلم مع الكفار لا سيما وقد فوجئوا بدعوة جديدة لم يسمعوا بها من قبل ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ . فتمسكوا بالصبر والأناة مع اليقين في الدعوة إلى الله تعالى يتحقق لكم وعد الله عز وجل، فهذا طريق الإمامة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾. فما عليكم إلا الانتظار والتحلي بالحلم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ﴾. هذا مقصد سورة **السجدة** : الحث على التحلي بالأناة والحلم في الدعوة إلى الله تعالى إلى أن يتحقق وعد الله ﷻ .

وكيف لا يتحقق وعد الله تعالى لكم وأنتم أمة المصطفى محمد

ﷺ الذي صانه الله تعالى، وزكاه وطهره، وشرفه، وحفظه ونقاه من كل أذى. فلكمال شرفه عند الله تعالى جعله أباً للمؤمنين، وجعل أزواجه أمهات للمؤمنين ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ .

بل الله تعالى وملائكته يصلون عليه ، فأكثروا من الصلاة عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾، وإياكم وإيذاءه كما آذى بنو إسرائيل نبيهم موسى عليه السلام ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ . وهذا مقصد سورة **الأحزاب**: صيانة الله تعالى للنبي ﷺ وتطهيره وتشريفه وحفظه وتنقيته من كل أذى. فكيف لا يحقق الله تعالى موعوده له ولأمته، وكيف يتخلى الله تعالى عنه وعن أمته.

إن بعث الله تعالى لسيد البشر رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ في هذه الأمة لنشر هذه الرسالة لهو كرامة وشرف لها . فينبغي أن تقابلها الأمة بحمد الله تعالى الدائم في الدنيا والآخرة لكمال حكمته ورحمته بها ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ .

فإن لم يحمدوا الله تعالى على بعثتك وتشككوا فيك وفي

الرسالة وارتابوا فلينتظروا حينئذ عقوبة الله تعالى ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ . هذا مقصد سورة **سبأ**: حمد الله تعالى بجميع صور الحمد على إكرامه الأمة وتشريفها بنبيها المصطفى ﷺ لحمل راية هذه الدعوة، فلتحافظ على هذا الشرف.

وإن أعظم رحمة لله تعالى أكرم بها عباده أن جعل الرحمة علماً للرسالة المحمدية، فهي رسالة الرحمة ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ . فكما جعل الله تعالى الملائكة مراتب، وجعل عدد أجنحتهم علامة على مرتبة كل منهم عند الله تعالى ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ ، وكما جعل الله تعالى رسله من البشر مراتب، وأنبياءه مراتب، والمؤمنين مراتب، يزيد في هذه المراتب ما يشاء، فكذا جعل رسالاته مراتب، وأعلاها مرتبة هذه الرسالة المحمدية التي جعل الرحمة علامة لها.

فرحمتنا وسعت الجميع، المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، في كسبهم للصغيرة والكبيرة، سواء كانت ظلماً أم فسقاً أم عصياناً عمداً، أم خطأ أم نسياناً، أم جهلاً أم اضطراراً، أم ذنباً خاصاً أم

عاماً، أم مجاهرة أم سراً. فلم نؤاخذهم بجميع ما كسبوا ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾. كل ذلك متضمن في رسالة الرحمة التي أنزلناها على النبي محمد ﷺ. وهذا مقصد سورة **فاطر**: أن الرسالة المحمدية أشرف الرسالات، وسمتها الرحمة، فهي رسالة الرحمة.

ومن رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن جعل القرآن المنزل إليها متقناً تمام الإتقان، لا سيما في عرض المسائل وبيان أدلتها. فقد عرضت فيه بأفضل الطرق وأحكمها وأبينها ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾. على سبيل المثال: موضوع «البعث»، فقد أحكمت فيه الأدلة القرآنية، وسيقت فيه أحسن سياق، وعرضت فيه الحجج القاطعة أجمل عرض، وقد أحاطت بالكفار من جميع الجهات، وضيقت عليهم الخناق، فلم يحر أي منهم جواباً حتى شعر بالاختناق، وكادت أن تقطع عنقه لشدة وضوحها ودحرها لعقيدته الفاسدة عقيدة آبائه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾. لقد سدت عليه جميع المنافذ الباطلة الفاسدة التي تشككه في البعث ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾. فذكرت عشرة أدلة محكمة متقنة على البعث.

أليس خلق السماوات والأرض أعظم من ابتداء خلق الناس؟ فكيف بإعادة خلق الإنسان على الصورة السابقة. وإذا قدر على خلق العظيم، فإنه يقدر على خلق ما دونه من باب أولى ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ . وهذا مقصد سورة **يس**: أن القرآن متقن تمام الإتقان في عرض المسائل، وبيان أدلتها بأفضل الطرق وأحكمها وأبينها.

وكما ميزت رسالة التوحيد أتباعها بجعلهم رحمة للخلق، فكذلك ميزت أتباعها بالعزة والمكانة الرفيعة عند الله تعالى. فكمال العزة لله تعالى ولعباده المخلصين وأوليائه المحسنين والمؤمنين. لذا تكررت في سورة الصافات هذه الكلمات ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ﴾، واختتمت بقوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ . بينما كمال الذل والصغار والاندحار لأعدائه ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ . وهذا مقصد سورة **الصافات**: كمال العزة وعلو القدر لأولياء الله

المخلصين، وضد ذلك لأعدائه.

ولكن هذه العزة الناتجة من اتباع دعوة التوحيد، دعوة المحبة الخالصة لله تعالى تحتاج إلى صبر عليها بجميع أنواع الصبر الستة. فإذا كان الكفار وهم أهل الباطل يتواصون بالصبر على باطلهم ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ فكيف بأصحاب الحق؟ فهم أولى بالتحلي بالصبر بجميع أنواعه.

حينئذٍ أبشروا بحسن الذكر والعاقبة ولو بعد حين ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ . هذا مقصد سورة «**ص**»: التحلي بجميع أنواع الصبر لتنال العزة وعلو القدر.

إن المحبة الخالصة والعبودية الحقة لله تعالى ليست مجرد دعوى، وإنما لها علامات وصور ولوازم ينبغي التحلي بها، ومحظورات يجب اجتنابها لتصدق دعوى الإخلاص. لذا ورد في أول سورة الزمر ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ ، وتكرر فيها لفظ ﴿عِبَادِ﴾ و﴿عِبَدِى﴾، واختتمت بخلوص العباد المتقين حول العرش ولسانهم يلهج بالتسبيح والحمد ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .

هذا مقصد سورة **الزمر**: بيان صور المحبة الخالصة التي يجب التحلي بها، وعلاماتها، ولوازمها، وبيان محظوراتها.

والمحبة الخالصة النقية تقتضي صفاء القلب وطراوته، ولا يتحقق هذا الصفاء وهذه الطراوة إلا بتجنب الخصومات والجدال بالباطل المقسي للقلب، لذا ورد في أول سورة غافر التحذير من الجدال بالباطل ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ . وتكرر فيها التحذير منه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ ، وختمت بهلاكهم حال جدالهم ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ . هذا مقصد سورة **غافر**: تصفية القلب من الخصومات والجدال بالباطل ليصفو القلب صفاءً خالصاً لله تعالى.

ومن صفا قلبه لله تعالى جعل له بصيرة يتدبر من خلالها كتابه المحكم المفصل، ليستلهم منه أصول العلم الجامعة لمتطلبات الاستقرار والسعادة والسيادة والقيادة في الدارين.

فيرى حينئذ أن القرآن قد فصّل هذه الأصول بإحكام وفصاحة بالغة لكمال رحمة الله بعباده ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ . فيرى فيه الأصول الجامعة التي تروي الغليل

بالتعرف على جوامع الخير وطرقه، وتشبع احتياجاته النفسية والفطرية والروحية والبدنية. ويرى فيه التحذير من الأصول الجامعة لأنواع الشر وطرقه، والأصول الجامعة للأمراض الحسية والمعنوية.

فإن لم يحصّلوها من القرآن لإعراضهم عنه فستبين لهم الأيام على مر العصور صحة ذلك ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾. وهذا مقصد سورة **فصلت**: أن هذا القرآن قد فصَّل الأصول الجامعة لمتطلبات السيادة والسعادة.

فتمسكوا بهذه الدعوة المباركة، وهذه الشريعة العلية الحكيمة، وهذا الوحي، فإنها أعظم شريعة وأعظم ما أكرم به أهل الأرض. إذ تُعرف عظمة الشيء بعظم المصدر وعظم الأحوال التي صاحبته. فهي قد أتت من العلي العظيم ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾. نزلت بأفضل كلام وهو القرآن، وأفضل لغة وهي العربية، وعلى سيد البشر وأفضلهم رسول الله ﷺ ليستلم القيادة. واختار الله لها أفضل أمة، وأفضل بلد وهي أم القرى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ .

فهذه الشريعة التي نزلت على سيد الأنبياء والرسل وقائدهم هي أفضل الشرائع وروحها ونورها ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾. هذا مقصد سورة **الشورى**: بيان عظمة هذا الوحي وعظمة هذه الشريعة العلية الحكيمة ومميزاتها الأربع، ومقومات تفعيلها، والوصايا الجامعة لبناء قادتها.

وإذا علم عظمتها وجب حينئذ تجنب جميع أسباب الضلال التي تحيد بكم عن طريقها، طريق الهداية. ذلك لتسودوا العالم، ويكون لكم علو وذكر عند الله تعالى وعند جميع الأمم، وإلا خسرتم هذا الكنز العظيم الذي لا يعوض ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾. ثم ختمت سورة الزخرف بمن سلك سبل الضلال ولم يجتنب أسبابه ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. وهذا مقصد سورة **الزخرف**: بيان أسباب الضلال الاثني عشر لتجتنب، لذا تكرر فيها لفظ الهداية (لعلكم تهتدون، مهتدون، بأهدى، المهتدون).

وإذا لم يستمعوا لهذا النذير، واستمرؤوا الضلوع في أسباب الضلال فليرتقبوا «شدة الانتقام الإلهي» الذي ملئ دقة وحكمة

ورحمة، وليبشروا به ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ ، وكذا اختتمت بارتقابه ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ . وهذا مقصد سورة **الدخان**: بيان سبب الانتقام الإلهي، وتحديده، ومراحله، وأنواعه، والمصالح المترتبة عليه.

ولكن قبل حلول الانتقام الإلهي ليعلم الجميع أننا لم يفُتْنا ولم ننس «بيان الآيات ونصب الطرق والوسائل التي توصل العبد إلى توحيد الله تعالى» إنذاراً وإعذاراً، وهذا مقصد سورة **الجاثية**: ذكر فيها ثلاثة عشر طريقاً يوصل العبد إلى توحيد الله تعالى. ولذا تكرر فيها لفظ «الآيات» ﴿لَّأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾، ﴿ءَايَٰتُ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾، واختتمت بتقريع الكفار حين أعرضوا عن الانتفاع بها واتخذوها هزواً ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ .

وبالرغم من نصبنا للطرق والوسائل الموصلة إلى توحيدنا إلا أنهم أعرضوا أشد الإعراض بشتى أنواعه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾. فمن أعرض عن الانتفاع بهذه الطرق والدلائل فإنه يؤتى به جبراً يوم القيامة ليعرض على النار ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ . هذا مقصد سورة **الأحقاف**: بيان أنواع الإعراض

الأربعة التي قابل بها الكفار دعوة التوحيد.

لكن هذا التنوع في الإعراض عن دعوة التوحيد والذي يعقبه الصد عن سبيل الله تعالى سيعقبه ألوان من الذل والخذلان. أول الخذلان بطلان الأعمال، وضياعها، وذهاب بركتها، وانهيار بنيانها الشامخ سواءً في الأعمال الدينية أو المعاملات الدنيوية ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١﴾ .

وآخر أنواع الخذلان في الدنيا استبدال قوم غيرهم ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾. هذا مقصد سورة **محمد** ﷺ: صور الذل والخذلان التي تصيب من أعرض عن دعوة التوحيد، وعددها إحدى عشرة صورة.

ولرفع جميع صور الذل والخذلان لا بد من الإقبال على دعوة التوحيد بنصرة النبي ﷺ ومؤازرته وتوقيره وإعزازه ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، لتحقيق العزة والعلو والفتح لهذه الأمة ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ .

ومن لوازم نصرته ملازمته، ومصاحبته، ومحبته ومحبة أصحابه وصدِّيقيه، ومؤازرة كل من أحبه ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ

فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ لإغاظة عدوه ونشر دين الله تعالى للحصول على ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. هذا مقصد سورة **الفتح**: دعوة لمؤازرة النبي ﷺ وإعزازه ونصرته وتوقيره.

ومن صور توقيره ﷺ التأدب معه ومع أتباعه بالآداب اللسانية، وتجنب آفات اللسان معهم. من صور التأدب معه عدم الاعتراض عليه ولا الاقتراح عليه ما لم يطلب منكم ذلك ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ ، وعدم رفع الصوت بين يديه.

ومن صور الأدب مع رسول الله ﷺ أن لا يمن العبد بإيمانه على الرسول ﷺ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ﴾ . وهذا مقصد سورة **الحجرات**: التأدب مع رسول الله ﷺ، وهذا من تمام نصرة النبي ﷺ.

ولتعزيز نصرة النبي ﷺ والتأدب معه نزل القرآن على النبي ﷺ بالحجج والبراهين التي تميزت بالقوة، والكثرة، وتعدد وجوهها، ووضوحها، وسعة دلالتها، وشرفها وعلوها ومجدها، وتحقيقها للمطلوب، والاستغناء بها عما سواها من الأدلة. إذ كلما ازداد المرء علماً وحجة وفصاحة ازداد مجداً وجلالاً. فينبغي للطرف الآخر أن يزداد به إعجاباً وله تمجيداً، ومعه تأدباً ومؤازرة، ومناصرته أشد المناصرة، إلا أن الكفار في حال عجب

واستخفاف ﴿... وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ .

على سبيل المثال «موضوع البعث». انظر إلى الاستدلال المجيد في القرآن الذي نزل على النبي ﷺ ! وتدبر قوة الأدلة القرآنية المساقة فيه ووضوحها وشرفها! وبالرغم من ذلك لم يعظموه، ولم يتأدبوا معه، ولم يؤازروه، بل عجبوا إعجاب استخفاف وتكذيب.

يا رسول الله! أيها الدعاة! لا تجعلوا هذا التكذيب صارفاً لكم عن الاستمرار في الدعوة والتذكير ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾. فالقرآن مُلئ جلالاً وعظمةً ومجداً. هذا مقصد سورة «ق»: اشتمال الدعوة النبوية على أقوى الحجج، وأوسعها دلالة، وأكثرها وجوهاً، وأوضحها، وأغناها عما سواها، وأشرفها، مما يقتضي تمجيده ونصرته والتأدب معه.

إن هذا الوعيد السماوي الدنيوي الذي توعدناهم به لا يأتيهم بلا إنذار. فنحن خلقنا الأجرام العلوية والآيات السماوية مذكرة، تحمل بشارة لمن آمن، وتذكيراً عاجلاً لمن أعرض وكفر، وإنذاراً بالعقوبات والوعيد الآجل ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣

فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾ .

فهي عبرة لكم في الدنيا، تنذر وتبشر بما وراءها. وكما أن فيها الرزق والرحمة، ففيها كذلك العذاب والنكال. وتذكر بالجزاء الأخروي، فهي مقدمة لما ينتظركم يوم القيامة.

وكما أن الرياح والسحب مثقلة بالغيث النافع، ففيها كذلك الصواعق والرعود والبروق والطوفان والعذاب والزمهرير، وكما أن الكواكب الجارية زينة فكذا تتخللها شهب حارقة، وكما أن الملائكة التي تسوقها تأتي بالبشرى فكذا تأتي بالعقوبة. فالوعد صادق والحساب واقع. فليحذر الكفار من نصيبهم السماوي من العقوبات.

فجميع ما وقع من العقوبات السماوية للأقوام المكذبة ما هو إلا بمثابة دلو سماوي واحد من العقوبات بسبب ذنوبهم، وقد ادخر مثله لمن بعدهم ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ . هذا مقصد سورة **الذاريات**: أن الآيات السماوية تحمل في طياتها وعداً ووعيداً دنيوياً، وعداً بالخير ووعيداً بالعقوبات.

وكما أن هذا الوعد والوعيد الدنيوي متحقق، فكذلك الوعد

والوعيد الأخروي متحقق ولا بد، لا يدفعه دافع. فتحققه من أثبت الثوابت بعد توحيد الله تعالى، لذا أقسم الله تعالى عليه بأعظم المخلوقات الثوابت. كما أن أثبت ما في الأرض الجبال الرواسي، لا سيما إذا تخللها النبات المثبت للتربة ويسمى بالطور ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ ، وكما أن الكتاب يثبت فيه العلم لا سيما أثبت الكتب وهو اللوح المحفوظ ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ ، وكما أن الكعبة أبرك البيوت الأرضية وأثبتها قواعد وقدسية وأقدمها بناء، وكذا البيت المعمور في السماء ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤﴾ ، وأثبت منهما وأعظم العرش الذي هو سقف جنة الفردوس ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾، وأثبت المياه وأعظمها البحر الذي عليه العرش ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ ، فكذا الوعد والوعيد الأخروي من أثبت الثوابت.

ويتأكد ذلك للعيان إذا سجرت البحار والمحيطات ليؤذن بحلول البعث، وهو اليوم الذي يتحقق فيه الوعد والوعيد الأعظم. فالوعيد الأخروي واقع بلا ريب، متحقق بلا دافع يدفعه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ ، وكذا الوعد للمؤمنين ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ۝١٧﴾.

فذرهم في غفلة عن المذكرات والعقوبات المنذرة حتى يلاقوا وعيدهم ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾. هذا مقصد سورة **الطور**: أن تحقق الوعد والوعيد الأخروي من أثبت الثوابت.

لذا على العبد أن يبني عقيدته وقواعده على الثوابت والعلم اليقيني والقطعيات، لا على الظنون والأوهام الكاذبة. فكما أن النجوم التي يُستَدل بها ويُهتَدى هي النجوم الثوابت فقط، فكذا على المرء أن لا يستدل إلا بالثوابت والقطعيات لدينه لا سيما فيما يعتقده في الله تعالى. فالأمر الذي جاء به النبي ﷺ مبني على علم قطعي يقيني ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، بينما جميع العقائد الأخرى المخالفة له مبنية على تخرصات وأوهام وأهواء ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

لقد اقترب الهلاك الدنيوي، واقترب الوعيد الأخروي، فلا يرفع العقوبة فيهما إلا الإذعان للقطعيات الإلهية والسجود لله والخضوع ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۝٦٢﴾. هذا مقصد سورة **النجم**: أن يبني الإنسان عقيدته ومنهجه على القطعيات والعلم الصحيح.

ولكن هذه العقوبات المترتبة على ترك القطعيات في الاعتقاد،

والاعتماد على الظنون والأوهام الكاذبة لا تأتي فجأة، وإنما تسبقها النذر بعدة صور. منها الإنذار باقتراب الساعة كانشقاق القمر، وبعثة النبي ﷺ، والتي تتوالى إلى أن ينفخ في الصور ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ .

هذا مقصد سورة **القمر**: أن الله تعالى يسبق العقوبات بالنذر المذكرة، لذا تكرر فيها ذكر لفظ «النذر»، وأعظم النذر القرآن الكريم فتكرر فيها ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ .

وبالرغم من ذلك فإن الله تعالى تسبق رحمته غضبه. فقد تجمل الله تعالى بالأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا أعظم ما أكرم الله به عباده أن عرّفهم على نفسه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ أعظم اسم لله تعالى بعد اسم الله، وقد كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش «أن رحمته سبقت غضبه».

ومن رحمته أن أنزل على العباد كلامه وهو القرآن الذي هو صفة من صفاته، وقد ملئ بذكر صفاته العلى وأسمائه الحسنى التي يتقرب بها إلى جلاله، فعلمهم إياه ﴿۞ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ . ثم أكرمهم بالنعم الحسية والمادية رحمة بهم، وأعظم منها رحمةً وكرماً

الوعد بالنظر إلى وجه الله تعالى الذي ملئ جمالاً وجلالاً وكرامة ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ، فهذا أعظم من جميع النعم المخلوقة. إن التعرف على اسم واحد أو صفة واحدة لله تبارك وتعالى أعظم نعيماً وبركة من جميع أنواع النعيم الحسي ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ ، هذا مقصد سورة **الرحمن**.

إن اليوم الذي يقع فيه للعبد كمال التعرف على الله تعالى ويتحقق له كمال التنعم بأسمائه وصفاته وكمال الزلفى والقربى منه، وكمال العلو والارتفاع ليكون عن يمين الرحمن هو يوم الواقعة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾، ذاك يوم الخفض والرفع ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾. حينئذٍ ينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام مرتبة ترتيباً تنازلياً على قدر تعرفهم على الله تعالى في الدنيا وتنافسهم في معرفة أسمائه وصفاته والعمل بمقتضاها، ليقع النعيم يومئذٍ على أكمل صوره، وكذا العذاب على أتم صوره.

فشمروا للوصول إلى أعلى المواقع وأسمى المراتب ببذل أفضل الأسباب مع حسن القصد، مستعينين باسم ربكم العظيم ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾. ولتكن هممكم أعلى من همم أهل الدنيا التي تطلعت للفوز ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ والوصول إليها،

ولتسرح هممكم بقلوب طاهرة ملتصقة بالقرآن الكريم، كلام الله تعالى لتصاحب المطهرين في الملأ الأعلى ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ . هذا مقصد سورة **الواقعة**: الفوز بأعلى المواقع بأكمل الأحوال عند كمال التعرف على الله تعالى، في يوم الواقعة.

ومن الأسباب المعينة على بلوغ تلك المواقع العليا والمراتب الجليلة بعد التعبد بأسماء الله الحسنى والصفات العلى هو المسابقة في الإنفاق في سبيل الله تعالى.

واعلموا أنه لا يستوي من أنفق بالأمس كمن أنفق اليوم ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾. فعليكم بالمسابقة لذلك، وهو بمثابة إقراض أكرم الأكرمين ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ .

هذا مقصد سورة **الحديد**: استعمال الإنفاق في سبيل الله تعالى لبلوغ المراتب العليا عند الله تعالى، ومعرفة ثواب الإنفاق، وموانعه، والمثبطات عنه، وثمراته القاصرة على النفس والمتعدية إلى الغير، والطرق المعينة عليه.

ومن الأسباب التي ترفع العبد إلى مقام الزلفى أن يحسن اختيار من يبث إليه شكواه وهمومه وأحزانه ونجواه. وأولى من تبث إليه نجواك وهمومك هو أعلى الذوات، وهو الله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾.

فمن الخلق من قد يكون أقربهم إلى قلبك، وتبث إليه شكوى قلبك، وهو أقرب الخلق إلى نجواك وهمومك، فلا تأمن من أن يقطع العلاقة بك فجأة بكلمة واحدة وأنت في أضعف أحوالك وفي أشد الحاجة إليه، بكلمة كذب وزور يريد أن يقضي بها على ربيع العلاقة السابقة معك، وبأغلظ الأيمان، كالظهار مثلاً.

أما الله تعالى فهو خير من تناجيه وتبث إليه الشكوى، ويدوم معك، ويسمعك ويبصرك، ويقتص لك مظلمتك من ظالمك، ويستجيب لك استجابة سريعة شافية تتضمن أفضل الحلول وأدومها. ويشمل ذلك من وددته في الله تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ .

ولكن اعلم على وجه العموم أن للنجوى ضوابط، فإياك وتعديها. هذا مقصد سورة **المجادلة**: حسن اختيار من تناجي،

والتأدب بأدب النجوى وضوابطها، لترتقي إلى المنازل العليا والمرتبة النجومية.

فمن جعل غير الله تعالى عدته، وتوكل عليه، وجعله ملجأه وركنه، واتخذ الله وراءه ظهرياً فرّق الله عليه شمله، وعذبه به، ومُكِر به.

بينما من جعل الله عدته وتوكل عليه واعتمد، تهاوت أمامه كل الحصون والقلاع بأيسر الطرق وأهون الأسباب، سواءً كانت حصوناً مادية أو اقتصادية أو سياسية أو بشرية أو شيطانية. فالحصون الإلهية هي الوحيدة النافعة. فكل من شاق الله تعالى وشاق رسوله ﷺ سقط وتهاوى مهما عظم، وانقلبت عليه الوسائل والأسباب التي كان يتعاظم بها، وأصبحت عذاباً ووبالاً ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، بل وأصبحت فيئاً لله ولرسوله.

فالحصن الحصين هو الله تعالى وتقواه، فلا يلجأ إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يعتمد إلا عليه، ولا يطمأن إلا له، فله كمال الملك والتصرف والقداسة والجبروت والكبرياء، وله كمال العزة

والحكمة، وله جميع الأسماء الحسنى والصفات العلىٰ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .

هذا مقصد سورة **الحشر**: أن من جعل عدته وعمدته غير الله وتوكل عليه فرّق عليه شمله، وتهاوت حصونه، وعذب به. بينما من جعل الله تعالى وكيله وعدته نال خير الدنيا والآخرة وجمع له شمله.

من صور ذلك أن لا توالوا إلا في الله، ولا تعادوا إلا فيه، ولا تودّوا إلا فيه. فالولاية لله تعالى وحده، والمودة له وحده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾. فلا ترجوا من أعداء الله خيراً وإن تظاهروا به لكم، فمتى ما ظفروا بكم تنافسوا فيكم أيهم أشد تقطيعاً لكم وعداوة، لساناً ويداً. فلا تتخذوهم أولياء ولو كانوا أرحامكم وأولادكم.

بل موالاة النساء المؤمنات خير من موالاة ومودة أضعافهن من أشراف الرجال الكفار، فالمؤمنات في مصاف الرجال الكمل. هذا مقصد سورة **الممتحنة**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ .

ومن صور الاعتماد على الله تعالى أن يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً، ويوادّ بعضهم بعضاً، ويتراصوا في صف واحد، لا سيما في مجابهة الأعداء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ .

أيها المؤمنون! عليكم بأربح تجارة، وهي التجارة مع الله تعالى بالإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والتلاحم مع أئمة الهدى وموالاتهم ومودتهم ومناصرتهم لنصرة هذا الدين ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ ، لتبقى هذه الأمة متآلفة متلاحمة منتصرة، ظاهرة على الحق، لا يضرها من خذلها ولا من خالفها حتى يأتي أمر الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ .

وهذا مقصد سورة **الصف**: دعوة المؤمنين ليكونوا صفاً واحداً متآلفين لنصرة دين الله تعالى.

ومن صور الاعتماد على الله تعالى إظهار شعائر الإسلام وعدم التخلي عنها طرفة عين. لقد أكرمكم الله تعالى بأن جعلكم من هذه الأمة الكريمة على الله تعالى، والتي جعل لها خصائص ملكية قدسية

تفوح منها رائحة العزة والحكمة ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾، وأكرمها بسيد البشر، وإمام الأنبياء، وفخر الرسل. وأكرم الله كل من سيلتحق بها ممن لم يجئ بعد، فحفظ له الدين والسنة النبوية الصحيحة ليصل إليه العلم النبوي كأنه حاضر بين يدي رسول الله ﷺ، فضلاً من الله تعالى وجوداً وكرماً. فحافظوا على هذا الاختصاص وهذه الخصائص والمنح الإلهية واعملوا بمقتضاها.

ولا تكونوا كاليهود ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ ، ففرطوا بشعائر دينهم وخصائصه، ومن أعظمها العيد الأسبوعي الذي تقام فيه الشعائر الدينية فضيعوه. فاحرصوا أشد الحرص على هذه الخصائص، ومن أظهرها يوم الشعائر الأسبوعي ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ولا تجعلوا الشواغل الدنيوية والتجارة تلهيكم عنه.

هذا مقصد سورة **الجمعة**: العمل للمحافظة على الكرامات الإلهية والشعائر الدينية والخصائص التي اختص الله بها هذه الأمة، لتكون أمة شامخة عزيزة متميزة عن سائر الأمم.

لذا فاحذروا المجموعة الخبيثة من أفراخ اليهود، المندسة بين

صفوف المؤمنين، وهم المتلونون، أهل النفاق، الذين يسعون دوماً في زرع الشقاق بينكم، وبث الفتنة، وإشعال الحروب لطمس خصائص هذه الأمة وشعائرها وسلبها رتبتها. يظهرون الإيمان والمودة والموالاة ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ ، ويخفون هدمهم للأمة الإسلامية بكثرة الحلف. يظهرون التأييد والبناء للأمة بأقوالهم، ولكن لا تجد منهم أدنى مساهمة ظاهرة. هؤلاء لا يعتمد عليهم، إنما هم كالخشب المسندة التي لا ينتفع بها، بل هم عالة.

وهذا مقصد سورة **المنافقين**: الحذر من فرقة المنافقين المندسة في صفوف هذه الأمة لتخذيلها واجتثاثها وسلبها خصائصها وطمس شعائرها.

ثم احذروا ترك العمل، وعدم السعي، والتواني والكسل إماّ احتجاجاً بالقدر المكتوب ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ ، أو بسبب الانشغال فيما لا منفعة فيه في الآخرة فيضيع العمر، ويقتل الوقت، وتستنزف الصحة، فيمسي مغبوناً ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾. أو بسبب تكالب المصائب التي هي فتنة الضراء ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ . أو بسبب الافتتان بالأزواج

والأولاد والأموال والشهوات والفتن التي هي فتنة السراء ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ . فعليكم أن تحسنوا التعامل مع الجميع، أما الأُولى فببذل الأسباب، وأما الصحة والفراغ فبحسن استغلالهما، وأما المصائب فبالانتفاع بها فإنها تخفي وراءها كنوزاً، وأما فتنة السراء فبحسن توجيهها في طاعة الله تعالى، هذا مقصد سورة **التغابن**.

ثم انتبهوا إلى لبنة بناء الأمة وهي الأسرة، واحذروا من تفتيتها، فإذا هدمت الأسرة وتمزقت تمزقت حينئذ الأمة. ومن أظهر أسباب هدم الأسرة ظلم الزوجات. فليحذر الأزواج من ظلم الزوجات واستضعافهن، ومنعهن حقوقهن، لا سيما عند اشتداد الخلاف ووقوع الطلاق الرجعي ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ لشعوره بأن الأمور كلها بيده. فاتقوا الله تعالى فيهن، فالله تعالى أكبر وأعظم وأشد عقاباً للظالم، فقد أهلك قرى بأكملها لما ظلمت، ألا يهلك الزوج إذا ظلم زوجته؟ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨﴾ ، هذا مقصد سورة **الطلاق**.

ولتحذر النساء من المكر بأزواجهن، والمظاهرة عليهم،

وإيذائهم، لا سيما الصالحين منهم، وعلى رأسهم سيد الأزواج رسول الله ﷺ ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾. فالزوج سيد الأسرة فإذا سقط السيد تهاوت الأسرة وتفتتت، فالخزي والإبدال الذي سيلحق الزوجات حينئذٍ أمر يسير على الله تعالى. فعليها أن تلازم تقوى الله تعالى، ولا ينبغي أن تحتمي إلا بتقواه. إذ لا يمنع من حلول عقوبة الله تعالى عليها صلاح زوجها إذا فسدت كامرأة نوح وامرأة لوط. كما أنه لا يضرها فجوره إذا صلحت كامرأة فرعون. وإنما الميزان قنوتها وصلاح عملها كمريم بنت عمران ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾، هذا مقصد سورة **التحريم**.

هكذا ينبغي لجميع المكلفين من رجال ونساء، وقادة وأفراد، ومسلمين وكفار، ينبغي أن يكون لهم بعد نظر، وأن ينظروا إلى ما وراء الأحداث، وعليهم التأمل والنظر والتفكر ليحصل لهم تصور واسع شامل يتجاوز الأحداث الظاهرة. عليهم التفكر في المقاصد التي من أجلها خلق الخلق، ولماذا قدر الله الموت على الخلق، والتفكر في الآيات والعقليات الصحيحة، والتفكر في النصوص الشرعية وهي السمعيات التي تجعل المتفكر يتجاوز في

فكره إلى ما وراء هذه الحياة، وإلى سبب استقرار هذا الكون، والأصل الذي قام عليه هذا الكون ومن أجله خلق قبل أن يتحسر قائلاً ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ .

ولا يكن نظره قصيراً لا يتجاوز أنفه، فيقف عند العناد والتحدي، ويسبق لسانه عقله، كقول بعضهم لما ذكِّروا وأنذروا ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ؟ فليتفكر فيما لو اختل في الأرض شيء واحد وهو الماء مع غفلة الناس عنه، ماذا سيحصل لأهل الأرض؟ هذا مقصد سورة **تبارك**: دعوة لأن يكون للعبد بعد نظر، وينظر إلى ما وراء الأحداث، ويتأمل في الأسباب والنتائج ولا يقف عندها.

إذا ما اتسعت مدارك العبد واكتمل عقله حسن تعامله مع جميع الذوات وجميع المخلوقات، وتخلق بأحسن الأخلاق، وغلب عليه الحلم، الذي هو سيد الأخلاق. لذا تخلق بأكمل الأخلاق وأعلاها وأشرفها كما تخلق النبي ﷺ بها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ . وتجنب سفاسفها ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، بل وتجنب مخالفة الأولى ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ .

والأخلاق لا تقتصر على التصرفات الظاهرة، بل أصلها صفاء القلب ونقاؤه، لذا تجنب الأخلاق القلبية الفاسدة، كالحسد والنظرة

وهي الإصابة بالعين ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾. وهذا مقصد سورة **القلم**: الدعوة إلى التخلق بالخلق العظيم وتجنب سفاسفه.

فالويل لمن أساء خلقه وتعمد الخطيئة والفاحشة ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾ . وتعمد مخالفة أمرنا ولم يتب ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾، فلا ترى تعاملنا معه إلا بالحسم والحزم والسرعة والصرامة وشدة العقوبة. فمن نجا بإيمانه فقد فاز ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ ، وإلا فالحسرة والندم ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾، ولا ينفع الندم إذا حقت الحقائق. فالأمر جد وجزم، لا هزل فيه ولا تسامح، ولا هوادة ولا لين، لا سيما بترك دعوة التوحيد أو الافتراء علينا ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾، وهذا مقصد سورة **الحاقة**.

وإياكم والانسياق خلف خطرات النفس وهواها إذ يغلب عليها الإجرام، لا سيما وأن طبيعة النفوس الأرضية الانفعال والهلع والجزع، والشح والمنع، والتقلب والاضطراب ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾. إلا المصلين، فإن نفوسهم سماوية علوية، دائمة العروج إلى الله تعالى،

تتميز بالاستقرار ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾، والثبات والتحقق من الأمور ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾. فنفوسهم مداومة على الخير، ثابتة مطمئنة، وهذا مقصد سورة **المعارج**.

فليوجه هذا الانفعال في العمل الدؤوب في الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصح، مع بذل جميع الأسباب المقدورة في ذلك ليلاً ونهاراً بلا فتور ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ، وإن عمِّر ما عمِّر نوح عليه السلام ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ . هذا مقصد سورة **نوح**: اجتهد في الدعوة إلى الله تعالى قدر ما تستطيع بلا فتور.

حينئذ يسخر الله لك من لا يخطر على قلبك من الأمم ليؤمنوا بك، وستجد استجابة غير متوقعة. فإن النبي ﷺ لما دعا قريشاً استجاب له من لا يخطر على قلبه ممن لم يرهم، وليسوا من بلده، وليسوا من جنسه، وهم الجن الذين وفدوا إليه من مكان بعيد ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾. وهذا مقصد سورة **الجن**: أنك

إذا اجتهدت في الدعوة إلى الله تعالى سيتكفل الله بإيصالها إلى أمم لا تستطيع أنت الوصول إليها، وسيستجيب لدعوتك من لا يخطر على قلبك.

فاستعن على ذلك بالتواصل مع الله تعالى بالتهجد وقيام الليل ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ ، والتمرغ بين يدي عظمته، وصدِّق ذلك بالصدقة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ فالصدقة برهان، ثم الاستغفار من التقصير في جميعها ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ، وهذا مقصد سورة **المزمل**.

وإياك وأن تعجب بكثرة عملك ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾ . فالعبرة ليست بالكثرة، لا بكثرة العمل ولا بكثرة المال، ولا بكثرة الأتباع والسيادة في القوم، فليس العبرة بالكمّ، وإنما العبرة بالكيف. أليست جهنم مملوءة بملايين الجن والإنس بينما القائمون عليها فقط تسعة عشر من الملائكة؟ ألا تفر جموع الحمر الوحشية الكثيرة من أسدٍ واحدٍ ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١﴾؟ فالعبرة ليست بكثرة العمل، وإنما بتقوى الله تعالى ﴿ٱللَّهُ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾، هذا مقصد سورة **المدثر**.

ثم أكثر من لوم النفس في الدنيا ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ ،

واحذر الأسباب التي تمنعك من لومها، وعالجها قبل أن تتحسر وتلوم نفسك يوم القيامة حين لا ينفع اللوم ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا﴾ . إذ يقع اللوم في المراحل الثلاث للقيامة: في أول القيامة وهي القيامة الصغرى وذلك عند الوفاة ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ ، وفي القبر ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ ، وفي القيامة الكبرى لا سيما عند الحساب ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ ، وهذا مقصد سورة **القيامة**.

والزم الإخلاص لوجه الله تعالى في كل عمل وقربة تتقرب بها إلى الله تعالى ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ . فعلى قدر إخلاصك يكون ثوابك. فإذا مزج بالشوائب نزلت مرتبتك ومزجت بغيرها، بينما إذا كان نقياً منها استقى من العين المعين، من الأصل ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ . فعلى قدر الصفاء والنقاوة والإخلاص تعلو الرتبة، وعلى قدر المزج تنقص الرتبة ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ . فأكثر من الأعمال الخالصة التي لا يطلع عليها الناس ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ . وهذا مقصد سورة **الإنسان**: عليك بالإخلاص، فعلى

قدره تعلو رتبتك، وعلى قدر المزج بالشوائب تنقص الرتبة.

لقد جعل الله تعالى للعباد مذكرات تذكرهم ومنذرات تقيم عليهم الأعذار ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ ليرجعوا إلى الله تعالى، ويؤمنوا به، ويتوبوا إليه، ويحققوا الإخلاص، ويتخلصوا من الشوائب. ولكن هذه المذكرات جعل الله لها حداً مؤقتاً فاصلاً تنتهي إليه ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ ، حينئذٍ لا تقبل منهم الأعذار ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ . إذ لا تنتظم الأمورإلا إذا جعل لها حد، وميزان، وقدر معلوم، ووقت تنتهي إليه. بل لكل أمة ولكل فرد ولكل نعمة حد مؤقت ويوم يجب أن يؤدي قبله شكرها، وإلا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾ . فإذا لم يتذكروا بهذه المذكرات والمنذرات المؤقتة التي بينها القرآن ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ ، وهذا مقصد سورة **المرسلات**.

لقد جعل الله تعالى هذه المذكرات المنذرات لأمر عظيم وهو توحيد الله تعالى وعبادته وحده، بينما هم يتناولونه باستخفاف ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ . فمن أجله خلق هذا الكون العظيم بما فيه من مخلوقات، ومن أجله خلق الإنسان

ويسرت أموره، وسخر له الكون. ومن أجل المحاسبة عليه سيهدم هذا الكون ويصيبه الخراب. ومن أجله خلقت جهنم ليعذب فيها الطاغون المكذبون أحقاباً إلى الأبد ويذوقوا فيها ألوان العذاب. ومن أجله خلقت الجنة لينعم فيها المؤمنون المعظمون لهذا النبأ بأعلى أنواع النعيم. ولعظم أمره سيحاسب عليه الخلق، ويقف لأجله الملائكة العظام بسيدهم جبريل عليه السلام مع سائر الخلق هيبة لله تعالى، لا يتكلم أحد ولا يشفع إلا من شهد بالتوحيد وأذن له بالكلام. سيعلم الكافر حينئذٍ حق العلم عظم هذا النبأ، فيتحسر أشد الحسرة صائحاً يهتف نادماً: «يا ليتني كنت تراباً».

هذا مقصد سورة **النبأ**: أن مسألة التوحيد وهي عبادة الله وحده أمر عظيم، حوله تدور الأمور.

واعلموا بأن هذه الحياة قصيرة، ويوم الفصل قريب، والساعة قريبة فليسارع العبد للتمسك بهذا النبأ العظيم. فالساعة الخاصة بالفرد تبدأ عند نزع الروح ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾ فمن مات فقد قامت قيامته ، والساعة العامة مفاجئة وقريبة ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾ . والحياة وإن عظم فيها الملك كملك فرعون فهي قصيرة، والملك فيها سريع الزوال. والكون وإن عظم

بناؤه، فخرابه سريع وأيسر من بنائه، ولا يبقى إلا سعي الإنسان مع خوفه من مقام ربه.

وهذا مقصد سورة **النازعات**: أن الحياة الدنيا قصيرة، ويوم الفصل قريب. مدة الحياة الدنيا كقصر فترة العشي، وإن شئت أن تطيلها فهي كفترة الضحى، فلا تغتر بها ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

فعلام يستكبر العبد؟ أيستكبر عن الاستجابة للرسالة الإلهية؟ أليس أوله نطفة مذرة، تتردد بين السبيلين، ثم تنتهي بالقبر ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾. ثم هو محكوم بالقدر، وحياته قائمة على الافتقار والاحتياج إلى الغير في كل شؤونه، كحال الأنعام ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾. فعلام يستكبر؟

إن شرف العبد على قدر خشيته من الله تعالى، وإن كرامته ورفعته وطهارته على قدر إيمانه بالكتاب المنزل، المتضمن في الصحف المكرمة المطهرة، هذا مقصد سورة **عبس**.

إن هذا الكتاب المنزل ليس سحراً يخيل للأعين ما ليس بحقائق، إنما يخبر بالحقائق التي ستراها الأعين ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾. وليس تنجيماً يستقي علمه من

النجوم الجواري التي يصيبها الضعف من خنس وكنس ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾ . وليس كهانة، فأين الكهانة وسجع الكهان من بلاغة القرآن وحسن نظمه؟ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾. ولا هو صادر عن المس بالجنون ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢﴾ . بل هو كلام الله تعالى، نزل به ملك كريم أمين ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ ، سيد الملائكة، مقرب من الله تعالى، على رسول كريم منكم ﴿صَاحِبُكُم﴾ عرفتموه، وخبرتم صدقه وأمانته، فليس بقول شيطان ولا فعله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥﴾ . وهذا مقصد سورة **التكوير**: أن القرآن من عند الله تعالى، نزل به رسول كريم على رسول كريم، وليس سحراً ولا تنجيماً ولا كهانة ولا جنوناً ولا قولاً لشيطان.

فيا أيها العبد! عظم ربك الذي تفطرت له السماوات، وخضعت لكلماته الكائنات. وتعظيمه يقتضي الاستحياء منه، لا سيما وهو الكريم الذي تواترت عليك نعمه، وأنت في غفلة عن حقوقه، بالرغم من اطلاعه الدائم على كل عملٍ قمت به. هذا يقتضي طاعته مع الشعور بالتقصير، لا التفريط بطاعته مع رجاء مغفرته كحال كثير من الناس، وهذا الذي يسمى الغرور ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا

غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ . فآمن وأطع قبل أن يأتي اليوم الذي فيه ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ . هذا مقصد سورة **الانفطار**: أن لا تغتر بربك الكريم، بل تستحيي منه غاية الحياء.

إن التفريط بالأوامر الإلهية والغرور غالباً ما يصاحبهما الجور والتطفيف في الميزان. فإياك وعدم العدل في الحكم، سواءً ببخس الناس حقوقهم ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ ، أو التطفيف في الحكم على حجج الخصم، والتعامل معها بالضحك والسخرية والتغامز والتفكه، لا سيما إذا كان الخصوم هم أشراف الخلق، دعاة التوحيد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فيجب أن تحفظ الحقوق، ويحكم لصاحب الحجة. فالله تعالى قد حفظ حقوق المظلومين من ظالميهم، وحفظ حقوق البارين. فأسماء المطففين محفوظة مرقومة عند الله تعالى، وأسماء البارين محفوظة مرقومة، ونعيمهم محفوظ مختوم ﴿مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ لتحفظ حقوق الجميع. وهذا مقصد سورة **المطففين**: التحذير من التطفيف، لا سيما مع دعاة التوحيد.

من تمام العدل وإقامة الميزان أن كل إنسان سيلاقي جميع

أعماله التي عملها في دنياه خلال تنقله في أطوارها وأحوالها وطبقاتها لا يخفى منها شيء ولا يغيب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ . فكما أن بدر التمام ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ يكشف كل ما جمعه الليل من هوام ودواب ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ ، كذلك اللقاء يوم القيامة يكشف كل ما عمله الإنسان مجموعاً حاضراً خلال تنقله في طبقات حياته من طفولته إلى بلوغ مرحلة الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة ثم الهرم، وذلك بعد أن يتنقل في طبقاته مرحلة مرحلة: الحياة الدنيا ثم البرزخ ثم البعث ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ . وخلال تنقله فيها لا يضيع شيء من عمله عن علم الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾ ، وهذا مقصد سورة **الانشقاق**. فالسماء تنشق وتكشف ما كتب فيها مما يتعلق بالعبد، والأرض تظهر كل ما كان خافيا ومستترا فيها، ليتطابق ما كتب في السماء مع ما عمله العبد.

وسيجتمع عليه الشهود ليشاهدوا أعماله وفضائحه يوم القيامة ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾ ، وسيشهد العالم أجمع ويطلعون على أعمال الناس وعلى عقوباتهم وثوابهم. واحتشاد الشهود يومئذ لمشاهدة ذلك أعظم من شهود أصحاب الأخدود

عذاب المؤمنين، وأعظم من شهود بني إسرائيل عقوبة فرعون وجنوده. ثم تجلل بشهود الله تعالى المطلع على أعمالهم ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾، تلك الأعمال والفضائح التي سيرونها ويشاهدونها تتفق مع ما كتب في اللوح المحفوظ الذي حفظ كل شيء ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾، وهذا مقصد سورة **البروج**: الفضيحة الكبرى بشهود العالمين واطلاعهم على أعمال العباد وجزائهم يوم القيامة.

ومن الشهود الذين يشهدون له أو عليه السماء التي تظله، والنجم الذي يطلع عليه فيثقبه بنوره، والمَلَك الذي يحفظ عمله، وليس ذلك لنقص في علم الله تعالى، بل الله يعلم كل شيء، حتى يعلم طريق النطفة قبل خروجها، والمقصد من خروجها، وسبيلها المحرم أو المباح ﴿... مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾. وتشهد عليه جوارحه وأعضاؤه التي قارفت الفواحش والمحرمات لا سيما لحظة تلذذها بخروج الماء الدافق. ويشهد عليه قلبه الذي ينطق بسرائره، والسحب المثقلة التي اطلعت عليه، والأرض التي تقله. فكل شيء سيحفظ على الإنسان عمله من إيمان بهذا القرآن أو كيد ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾، ويشهدون له أو عليه ، ثم

يفصل فيه. فالأمر جلل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾ يستحق أن تجتمع عليه جميع هذه الشهود، وهذا مقصد سورة **الطارق**.

فاستعن دوماً باسم الله تعالى، الذي كملت صفاته وأسماؤه، وله المثل الأعلى ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾. فلكمال أسمائه وصفاته خَلَق، ولكمال علمه وقدرته وحكمته قدر مقادير الخلائق فهداها لمقاديرها. فمن لهج باسمه واستعان به أزهر قلبه وأثمر، وأنبت الله مرعاه كما أنبت مرعى الأرض، وتيسرت أموره وأفلح، وأحيا قلوب آخرين معه. ومن غفل عن ذكره ونسي ربه تحول قلبه إلى حطيم كالغثاء الأحوى، وشقي في دنياه وأخراه. وهذا مقصد سورة **الأعلى**: الاستعانة باسم الله الأعلى ليحفظ ويفلح.

واحرص على إتقان العمل بدلاً من الحرص على الإكثار منه بلا إتقان. فكم من عامل ناصب خاشع، عمله لا يسمن ولا يغني من جوع لأنه لم يتقن عمله. فالله تعالى يحب الإتقان، إتقان الظاهر وإتقان الباطن. لقد أتقن الله تعالى نعيم الجنة، حتى في ترتيب أثاثها ظاهرها وباطنها، كما أتقن خلقه ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾. فكلما كمل إتقان العبد لعمله

علت درجته وارتفع مقامه، هذا مقصد سورة **الغاشية**.

ولا يتحقق إتقان العمل إلا بحسن إدارة الوقت فيما ينفع ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ . وإذا أحسن الإنسان إدارة وقته تجنب التوتر واضطراب النفس، وفاز بالاطمئنان النفسي. إذ من أسباب اضطراب النفس تضييع الأوقات الشريفة لا سيما إذا ما شغلت بأعمال الظلم والطغيان، وكثرة الفساد والإفساد، والاختيال حال النعمة، والكفر حال المصيبة. وكذا تضييعها من أجل الحصول على الشرف والمال، والانشغال بهما عن أداء حقوق الضعفاء وعن مواساتهم، وعن أداء الحقوق المالية لأصحابها إلى أن يفاجأ بانتهاء الوقت وقيام الساعة ودك الأرض.

فإذا أحسنت إدارة الوقت فيما ينفع وتجنبت تلك الأسباب واتقيت الله تعالى اطمأنت النفس حينئذ إلى بارئها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾. هذا مقصد سورة **الفجر**: حسن إدارة الوقت فيما ينفع نفعاً حقيقياً، فهو من أكبر أسباب الاطمئنان وإزالة الاضطراب.

ثم اعلم بأنه ستواجهك جبال من الصعاب والشدائد والملمات مهما بلغت من الإتقان وحسن إدارة الوقت والمكانة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

﴿ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ . فإذا ما رغبت في اقتحامها وتخطيها فعليك بالإحسان إلى الناس لا سيما الضعفاء، والأعظم منه الإيمان بالله تعالى، ثم التناصح والتواصي بالصبر والتآخي والتراحم والمسامحة باختلاف الأحوال والأزمان. وهذا مقصد سورة **البلد**: كيف الطريق لتجاوز المصائب العظمى والملمات.

ثم الحرص على زكاة النفس، والتخلق بالأخلاق السامية الرفيعة، وتجنب سفاسف الأخلاق ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾. وأشنعها وأطغاها تحدي الرسالة الإلهية والسعي لإبطالها كشقي ثمود، هذا مقصد سورة **الشمس**.

فمن بذل الأسباب المشروعة لذلك قاصداً وجه الله الأعلى، الأحد، الذي لا ثاني له أعانه الله تعالى ووفقه، ويسره إليه، وأخرجه من ظلمة الليل إلى جلاء النهار ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾. ومن فعل الأسباب المحرمة تعسرت عليه أموره، وهذا مقصد سورة **الليل**.

فمن سعى إلى الله تعالى ببذل الأسباب الصحيحة كان أمره دوماً في ارتفاع كاستمرار شمس الضحى في الارتفاع ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ . ولا يودعه الله ولا يقليه، وكان في حفظ الله تعالى ورعايته، وأعطاه الله

تعالى وأرضاه، وآواه وهداه وأغناه، وهذا مقصد سورة **الضحى**.

ولا يعني ذلك أنه لن تصيبه بعض المصائب. بل تصيبه، وتستحكم عليه حلقاتها، حتى تكاد تنقض ظهره. ولكن يعقبها انفراج عظيم ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾، ويشرح الله صدره، ويعلي ذكره ، وهذا مقصد سورة **الشرح**.

والمصائب لها فوائد كثيرة. فالناس معادن، والنفوس ألوان، تكشفها وتجليها المصائب. فمن النفوس كحلاوة التين، وأخرى كنقاوة زيت الزيتون وضيائه، وثالثة كثبات الطور، ورابعة آمنة مطمئنة كالبلد الأمين ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾. فتجتمع هذه المزايا في النفس على قدر إيمانها بالله وعملها الصالح، فمن مستكثر ومستقل. فمن استكثر منها كان في أحسن تقويم، ومن فقدها كان في أسفل سافلين، وهذا مقصد سورة **التين**، كما قال النبي ﷺ: «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[1].

(١) رواه مسلم ٦٧٠٩

ومهما كان معدن الإنسان فهو عالة على غيره، عالقاً بغيره ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾. فإذا تسلح بالعلم وتفقه تحرر من قيود التقليد والافتقار إلى الخلق، وتخلص من كونه عالة، وفتحت له الدنيا أبوابها واستغنى، وارتقى إلى مراتب النجوم. ولكن هذا العلم إن لم يحكم بالضوابط الشرعية كان سبباً في الطغيان ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ . فمن ضوابطه أن يفتتحه بالاستعانة بالله تعالى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وأنه غير مستغن عنه، ويسقيه بماء المحاسبة والمراقبة، فهو راجع إلى الله تعالى ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ ، وسيحاسبه على ما اكتسبه من العلم وما قاده إليه. ومن ضوابطه أن يعلم أنه يراقبه في كل ما يعتقده من علوم يتوصل إليها وينشرها ويلزم الناس بها ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ . ومن ضوابطه أن يستعمل علمه في التقوى، وطاعة الله تعالى، والتقرب إليه. وإذا استعصت عليه معلومة ما سارع إلى الله تعالى، وعفر وجهه في التراب، سائلاً ربه تعالى أن يفيض عليه علم هذه المسألة ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ ، وهذا مقصد سورة **العلق**.

وأشرف علم ذاك الذي نزل في أشرف ليلة وهي ليلة القدر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ ، وهذا مقصد سورة **القدر**.

وهذا العلم هو الكتاب الذي جاء به رسول الله ﷺ، ويتضمن حججاً ووصايا قيمة، مفعمة بالطهارة والبيان ﴿... ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾. وهو أفضل الكتب وأشرفها، يملأ القلوب إيماناً وخشية ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾، وهذا مقصد سورة **البينة**.

فمن وصل إليه علم هذا الكتاب وأقيمت عليه الحجة فإنه سيوافى يوم القيامة كل عمل قام به، مهما صغر من خير وشر، يوافيه سمعاً ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾، وبصراً فيراه بأم عينه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، ويوافي جزاءه، هذا مقصد سورة **الزلزلة**. تزلزت الأرض وتصدعت استجابة لوحي الله تعالى بينما عاند الإنسان وحي الله تعالى، فهو جدير بأن يحاسب على كل ذرة عملها.

ولكن سبب غفلة العبد عن هذا الأمر أنه يتصف بثلاث صفات: أولها أنه كنود، فالمحنة الصغيرة تنسيه النعم الكثيرة والإحسان العميم، كفور غير شكور. ثانيها: يحب التحدي والعناد، حيث يعلم خطأ نفسه بالكفر ويصر عليه ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾. ثالثها: شديد الحب للمال والشرف. هذه الخصال هي أسباب

الحروب القائمة بين الخلق ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾، وسبب كفرهم بالله تعالى، هذا مقصد سورة **العاديات**.

فلا بد وأن ينبه الإنسان من غفلته هذه بقارعة تقرع القلوب، بأن مآله يوم القيامة غير متعلق بشرفه ولا بماله، وإنما بعمله وتقواه، وبميزان دقيق ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾، هذه ثمرة الكنود والعناد والتحدي، أعاذنا الله منها، وهذا مقصد سورة **القارعة**.

فإياكم والتسويف وطول الأمل. فلا تلهينكم المكاثرة في المال والولد والأتباع والجاه عن عبادة الله تعالى وحده، فإنها تلهي صاحبها حتى يفاجأ بالموت ثم يدفن في القبر ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ ، ليرى الجحيم أمامه، هذا مقصد سورة **التكاثر**.

فكيف يسوِّف ويلهو فى هذه الحياة القصيرة بالغة القصر والتي ما بقي منها إلا كفترة العصر، فإن لم يستغلها بأمور خمسة خسر أشد الخسارة ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ . وهي الإيمان بالله تعالى، ثم العمل بمقتضاه حسب ما ورد في الشرع، ثم التآخي على ذلك ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ ، ثم الدعوة إليه، ثم الصبر عليه،

وهذا مقصد سورة **العصر**.

إن الحرص على جمع المال والمفاخرة به من أكبر أسباب طول الأمل ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ ، فيعيش في خيال هذه المفاخرة والاختيال، فيغمط الناس ويستخف بهم بالهمز واللمز إلى أن ينتهي إلى الحطام الدنيوي والأخروي، هذا مقصد سورة **الهمزة**.

وكذا الحرص على الجاه والشرف وقوة الملك يؤدي بصاحبه إلى الهلاك، فكلما عظمت قوته وازداد جاهه وكان سببا في إعراضه عن الله تعالى وتحديه لشريعته كان هلاكه بأهون المخلوقات وأخفها ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾، وهذا مقصد سورة **الفيل**.

إن أصل الاقتصاد العالمي والسياسي وقيام الدول قائم على أمنين: الأمن الغذائي، والأمن النفسي والاجتماعي. والتذبذب في أي من هذين الأمنين له أثر ظاهر في اضطراب الاقتصاد العالمي واضطراب الأحوال السياسية العالمية، وكلاهما قائم على عبادة الله تعالى وحده ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾﴾. فقد يكون هلاكهم بالقضاء على الأمن الغذائي أو الأمن النفسي، أو الاثنين معاً، وهذا مقصد سورة **قريش**.

ويضطرب هذان الأمنان وتتدخل اليد الإلهية سافرة إذا ضُيِّعت الحقوق. فإذا فقد التراحم في المجتمع، وضيعت حقوق الضعفاء ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾، وتهاون الناس في حقوق الله تعالى، وضعفت الصلة بينهم وبين الله تعالى، وكان همّ الناس مراءاة الخلق اضطرب الأمنان، وهذا مقصد سورة **الماعون**.

بينما إذا أردتم الحفاظ على الأمنين والزيادة فيهما فازدادوا صلة بالله تعالى وإخلاصاً بالإكثار من الأعمال البدنية لا سيما الصلاة ليتحقق الأمن النفسي، والإكثار من العبادات المالية وأفضلها النحر تقرباً إلى الله تعالى ليتحقق الأمن الغذائي ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾، فالجزاء من جنس العمل. فمن انتقصكم بعدها فمصيره القطع والبتر وفقدان الأمنين، وهذا مقصد سورة **الكوثر**.

ثم تبرّؤوا من عبادة الكفار ودينهم ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾، ولا تداهنوا في شيء من توحيد الله تعالى، وهذا مقصد سورة **الكافرين**.

ولا تخشوا عاقبة البراءة منهم. بل أبشروا، فالله تعالى وليكم، والنصر حليفكم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾. بل سيفتح الله

تعالى عليكم الدنيا، وسينهال عليكم الداخلون في هذا الدين. فأكثروا حينئذٍ من شكر الله تعالى ومن التسبيح بحمد الله والاستغفار ليزداد هذا الخير، وهذا مقصد سورة **النصر**.

بينما عدوكم مصيره الخزي والخسران والعار والبوار مهما بلغ في النسب وجمع المال والجاه في الدنيا ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ ، وهذا مقصد سورة **المسد**.

فتعلقوا بالله تعالى الواحد فهو ﴿أَحَدٌ﴾ ، واعبدوه وحده، فهو الذي كملت أسماؤه وصفاته، وتفرد بها على وجه الكمال والجلال. فما من صفة كمال إلا واتصف بها، وما من صفة نقص إلا وتنزه عنها، فخارت دونه جميع القوى، وافتقرت إليه جميع المخلوقات لكمال غناه. فاسألوه وحده رفع فاقتكم وسد حاجاتكم، هذا مقصد سورة **الإخلاص**.

واستعيذوا برب المخلوقات من الشر الخارجي الظاهر، ومن شر جميع المخلوقات ذات الشر ليعصمكم، ومن شر الأزمان، وشر أعمال الجوارح وشر النفوس وأعمال القلوب، هذا مقصد سورة **الفلق**.

فاعتصموا بالله تعالى المتفرد بربوبيته وألوهيته وصفاته، وألجأوا إليه، واستعيذوا به من شر المحرك لهذه الشرور الذي لا يقدر إلا على الوسوسة، هذا مقصد سورة **الناس**.

فاختتم القرآن ببيان أنواع التوحيد الثلاثة ليكتمل توحيد العبد لله تعالى فيهديه إلى صراطه المستقيم.

فعاد آخره على أوله كعقد واحد تلاحمت دُرره.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً.

* * *

رسالة مختصرة في بيان أن ترتيب السور توقيفي والحكم المستفادة من ذلك

أولاً: تناسب سور القرآن

إن بعض القرآن آخذ بأعناق بعض في تأليف محكم، حاله كحال البناء المتين المتلائم الأجزاء، وكالكلمة الواحدة، متسق المعاني منتظم المباني، ومن محاسن الكلام عند الأئمة أن يرتبط بعضه ببعض[1].

والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة. ثم المستقلة؛ ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له[2].

(١) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح ١٥٦ .

(٢) البرهان للزركشي نقلاً عن بعض مشايخه ٣٧/١ .

ثانياً: المؤلفات في تناسب السور

اهتم بعض العلماء السابقين بموضوع تناسب السور. وقيل: إن أول مؤلف في ذلك كان كتاب «البرهان في تناسب سور القرآن» لأحمد بن الزبير الغرناطي، وكذا الحرالي ثم البقاعي في «تفسيره نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» والذي نقل فيه كلام الحرالي. والسيوطي في كتابيه «أسرار التنزيل» و «تناسق الدرر في تناسب السور»، ومن القرن الخامس عشر عبد الله الصديق في كتابه «جواهر البيان في تناسب سور القرآن»، وممن ذكر ذلك ضمن تفسيره ابن عاشور، وقد جمع أحد الباحثين إشارات ابن عاشور في كتيب لطيف، ولكن لم يضمنه إلا مقاصد السور دون بيان المناسبة بينها.

ثالثاً: الحكم والفوائد من ترتيب السور

١- يبرز جانباً من إعجاز القرآن الكريم

إذ نزل القرآن مفرقاً، وترتيبه ليس بحسب نزوله، وبالرغم من ذلك فقد جاء هذا الترتيب محكماً.

٢- المناسبة تلقي ضوءاً على مقصد السورة

قد يحار الباحث في معرفة مقصد السورة، وقد تبدو له عدة مقاصد لا يترجح عنده مقصد منها، فتأتي المناسبة بينها وبين السورة التي قبلها والتي بعدها فيتوصل إلى مقصدها. من ذلك سورة النبأ، فكونها بين سورة المرسلات التي هي سورة المذكرات والمنذرات ذات التأقيت وبين سورة النازعات التي هي سورة قرب الساعة وقصر الحياة فإنها تجعل الباحث المتردد بين عدة مقاصد يرجح أن مقصد سورة النبأ هو البيان أن عبادة الله وحده هو المطلوب الأعظم الذي تدور حوله الأمور. فلأجله خلق الكون، ولأجله قدر يوم البعث، ومن أجله خلقت الجنة والنار، ولأجله جعل الحساب، وله يقف جميع الخلق بين يدي عظمة الله تعالى.

٣- معرفة أصول دعوة الإسلام

من خلال التعرف على مقاصد السور يستطيع العبد المسلم تحديد أولياته في الحياة، ومعرفة المقاصد العظمى للشريعة. فإذا ما رأى أن مقاصد السور الأولى في القرآن هي التوحيد والاتباع والتزكية، علم حينئذ أن أول الأوليات في دعوته هو التركيز على هذه المقاصد والقواعد.

٤- معرفة المراحل التي ينبغي أن تسير فيها الدعوة إلى الله تعالى

من خلال ترتيب السور يعلم العبد ما هي المراحل التي ينبغي السير عليها في الدعوة إلى الله تعالى. من ذلك التسلح بالحجج قبل دعوة الناس وإنذارهم كما في سورة الأنعام ومناسبتها مع سورة الأعراف، وهي سورة الرسالة والنذارة.

ومعرفة احتياجات تلك المرحلة من جهاد بالمال والنفس وهو ما تضمنته سورتا الأنفال والتوبة.

ومعرفة ما هو المتوقع من قبل الأعداء بعد تلك المرحلة كالقتال والتشكيك، وهما مقصدا سورتي التوبة ويونس.

٥- تعليق الأسباب بنتائجها، ومعرفة المصائب وعلاجها

من المصائب التي تواجه الدعاة إلى الله تعالى قتال الكفار للمسلمين، وموجة التشكيك العالمية في دينهم مما يسبب ضغطاً نفسياً على قلوب المسلمين الذي يمكن رفعه بالمواساة والطيران إلى الله تعالى في طائرة المحبة ليتحقق الاطمئنان القلبي التام ويزول الاضطراب. هذه هي المقاصد الواردة في سور التوبة ويونس وهود ويوسف والرعد على الترتيب المذكور.

وذلك يتطلب دوام ذكر الله تعالى بشتى أنواع الذكر ليجني العبد بعده حفظ الله تعالى، ولكنه يتطلب من العبد عملين جليلين وهما الصبر والشكر. وهذه هي المقاصد الواردة في سور إبراهيم والحجر والنحل على الترتيب.

رابعاً: أنواع المناسبات

للسورة فيما بينها وبين ما قبلها وما بعدها من السور أنواع من المناسبات، يرى فيها المتدبر حسن الترتيب والتلاحم والتناسق والتلازم. قال السيوطي: انظر إلى هذه السور الأربع المدنيات - البقرة وآل عمران والنساء والمائدة- وحسن ترتيبها وتلاحمها وتناسقها وتلازمها[١].

وإليك بعض هذه المناسبات:

١- المناسبة بين آخر السورة وأول السورة التي بعدها

قال الزركشي: إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى[٢].

فأول هود تناسب خاتمة يونس[٣].

---

(١) تناسق الدرر ٩٦

(٢) البرهان ٣٨/١

(٣) انظر تناسق الدرر ١٠٨

كذا الرعد مع سورة يوسف[1].

وأول سورة الواقعة مع آخر سورة الرحمن[2]، وختمت سورة الواقعة ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾ وافتتحت سورة الحديد التي بعدها بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ .

٢- السورة بأكملها تفصيل لما قبلها

قال السيوطي: كل سورة فيها تفصيل ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه[3].

فالبقرة فيها تفصيل لأصناف الناس في موقفهم من التوحيد المذكور في سورة الفاتحة من الذين أنعم الله عليهم وغيرهم من المغضوب عليهم والضالين. وسورة الشعراء تفصيل لآخر سورة الفرقان: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ .

٣- مكملة لما قبلها

قد تكون السورة السابقة إما قاعدة، أو تتضمن سؤالاً ذهنياً، أو

(١) تناسق الدرر ١٠٩

(٢) تناسق الدرر ١٣٥

(٣) تناسق الدرر٧٨، ٨٣ .

تتكلم عن الشق الأول من الموضوع، فتأتي السورة اللاحقة لتكون نموذجاً تطبيقياً أو إجابة للسؤال أو تذكر الشق الثاني من الموضوع. قال الرازي في سورة الكوثر: هي متممة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها[١].

وسورة الأنبياء نموذج في كيفية تطبيق قواعد الدعوة المذكورة في سورة طه.

وقد تكون السورة إجابة لسؤال يرد في الذهن عند قراءة آخر السورة التي قبلها، كسورة الزلزلة مع البينة التي قبلها[٢] وسورة التكاثر مع القارعة[٣].

٤- تكون علة لما قبلها

كسورة البينة واقعة موقع العلة لما قبلها[٤].

٥- مناسبة أول السورة وخاتمة ما بعدها

إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإن السورة الثانية تكون

(١) تفسير الرازي - سورة الكوثر، تناسق الدرر للسيوطي ١٦٢

(٢) تناسق الدرر للسيوطي ١٥٥- ١٥٦

(٣) تناسق الدرر للسيوطي ١٥٧ .

(٤) تناسق الدرر للسيوطي ١٥٥

خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى، للدلالة على الاتحاد[1]. فأخر آل عمران مناسب لأول البقرة، فإنها افتتحت بذكر المتقين، وأنهم المفلحون. قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، وختمت آل عمران بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وأول سورة الرحمن مع آخر سورة الواقعة[3].

(١) تناسق الدرر ٨٧

(٢) تناسق الدرر ٨٧- ٨٨.

(٣) تناسق الدرر ١٣٥ .

خامساً: ترتيب سور القرآن توقيفي

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في ترتيب سور القرآن هل هو توقيفي من قبل الشارع، أي أن النبي ﷺ بأمرٍ من الله تعالى رتب السور كالترتيب الموجود في المصحف العثماني؟ أم باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم؟ أم أن بعضه رتب من قبل الشارع وبعضه الآخر اجتهد فيه الصحابة رضي الله عنهم؟

الصحيح في ذلك -والله أعلم- أن جميعه مرتب من قبل الشارع، أي توقيفي. لأن المصحف العثماني كان موافقاً للعرضة الأخيرة التي عارض جبريل النبي ﷺ قبل وفاته، ولورود الترتيب عن النبي ﷺ لبعض السور بأسانيد صحيحة كالبقرة وآل عمران والنساء، وكذا الجمعة والمنافقون، والأعلى والغاشية، والمعوذات الثلاث، وغيرها من السور. ولورود الحديث في ترتيب السبع الطوال ثم المئين ثم المثاني ثم المفصل، ثم إجماع الصحابة رضي الله عنهم والأمة على المصحف العثماني. وإقرار الصحابة لهذا الترتيب مع شدة حرصهم على أن لا يفعلوا شيئاً بالقرآن لم يفعله رسول الله ﷺ، ثم المناسبة بين السور واضح.

وأن القرآن محفوظ، ولا بد أن يكون النبي ﷺ قد قرأه بترتيب معين، ولا يقال بأن الترتيب النبوي لم يُحْفَظ إذ تكفل الله تعالى بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ .

وإليك تفصيل هذه الأدلة:

(١) ورود ترتيب بعض السور نصاً

١- قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران»[١] وقال ﷺ: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدُمه سورة البقرة وآل عمران»[٢].

٢- «كان ﷺ إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات»[٣]. وفي رواية «قرأ قل هو الله أحد، وبالمعوذتين»[٤].

٣- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العِتَاق الأول، وهنَّ من تِلادي[٥].

العتاق الأول: أي السور التي أنزلت أولاً بمكة.

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤)

(٢) رواه مسلم (٨٠٥)

(٣) رواه البخاري (٤٤٣٩)

(٤) رواه البخاري (٥٧٤٨)

(٥) رواه البخاري (٤٧٣٩).

تلادي: أي من أول ما تعلمته بمكة.

٤- قال أبوهريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بسورة الجمعة والمنافقين يوم الجمعة[١].

٥- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة سبح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية[٢].

(٢) تحزيب القرآن

قال الحافظ ابن حجر: ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفياً. ومما يدل على أن ترتيبها توقيفي ما أخرجه أحمد وأبو داود عن أوس بن حذيفة الثقفي رضي الله عنه قال: (كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف) الحديث، وفيه (فقال لنا رسول الله ﷺ: طرأ عليّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه. فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من

(١) رواه مسلم ٨٧٧

(٢) رواه مسلم ٣٥١

ق حتى نختم)[1].

قال ابن حجر: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ. ويحتمل أن الذي كان مرتباً حينئذ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه[2].

(٣) ترتيب الأقسام الأربعة توقيفي

وقال أبو جعفر النحاس: المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ، لحديث: (أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلت بالمفصَّل)[3].

قال: فهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن

(١) رواه أحمد (٩/٤) عن ابن مهدي، وأبو داود (١٣٩٣) وابن ماجه (١٣٤٥) عن أبي خالد، وأبو داود (١٣٩٣) عن قُران بن تمام عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلي الطائفي عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جده أوس بن حذيفة به. أما عثمان بن عبد الله بن أوس فلم يوثقه إلا ابن حبان. وروى عنه جمع من الثقات، وذكره ابن أبي حاتم دون جرح أو تعديل، وقال ابن معين: إسناد هذا الحديث صالح. أسد الغابة (١٤٢/١) المنذري على مختصر سنن أبي داود ١١٣/٢ .

(٢) الإتقان ٨٣/١-٨٤

(٣) أخرجه أحمد وغيره وصححه الألباني في السلسلة ١٤٨٠

النبي ﷺ، وأنه من هذا الوقت هكذا. وإنما جمع في المصحف على شيء واحد لأنه جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ﷺ على تأليف القرآن.

❑ **فائدة:**

١- السبع الطوال: أولها البقرة وآخرها الأنفال.

٢- والمئون: ما بعد السبع الطوال، سميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها.

٣- والمثاني: ما بعد المئين، لأنها ثنتها: أي كانت بعدها، فهي لها ثوان، والمئون لها أوائل. وقال الفراء: هي السورة التي آيها أقل من مائة آية، لأنها تثنى أكثر مما يثنى الطوال والمئون. وقيل: لتثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر. وقال في جمال القراء: هي السور التي تثنيت فيها القصص.

٤- والمفصل: ما بعد المثاني من قصار السور، سمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة، . وقيل: لقلة المنسوخ منه، ولهذا يسمى بالمحكم أيضاً، كما روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: «إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم». وآخره سورة الناس بلا نزاع[١].

(١) انظر الاتقان ٨٤/١

(٤) الإجماع على ترتيب الأقسام

قال السيوطي: تقديم الطوال، ثم المئين، ثم المثاني، ثم المفصل، ينبغي أن يقطع بأنه توقيفي، وأن يدعى فيه الإجماع، وإن لم أر من سبقني إلى ذلك. وإنما دعاني إلى هذا أمران:

أحدهما: ما تقدم من الأحاديث.

والثاني: أن المصاحف التي وقع فيها الاختلاف في الترتيب اتفقت على ذلك، فإن مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه وابن مسعود رضي الله عنه كلاهما قدم فيه الطوال، ثم المثاني، ثم المفصل، كمصحف عثمان، وإنما اختلفا في ترتيب سور كل قسم[1].

(٥) العرضة الأخيرة

أ- كان جبريل عليه السلام ينزل كل رمضان على النبي صلى الله عليه وسلم فيقارئه القرآن، وفي العام الأخير عارضه القرآن مرتين. فإما أن يكون جبريل عليه السلام كان يعارض القرآن بقراءة سورة سورة أو أنه كان يعارض جزءاً من السورة ثم ينتقل إلى سورة أخرى ليعارضه جزءاً منها ثم إلى ثالثة وهكذا، ولا يتم السورة ثم يرجع إلى الأولى وهكذا. وهذا

(١) تناسق الدرر للسيوطي ٧٢

الأخير بعيد ولم يقل به أحد من العلماء، وإنما كان يعارضه سورة سورة.

ثم يقال: هل هذا الترتيب في العرضة الأخيرة من الله تعالى؟ أم باجتهاد من جبريل؟ فإن كان من الله تعالى فهو المطلوب. وإن قيل باجتهاد من جبريل، يقال: كيف وقد قال الله تعالى عن الملائكة: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾؟ وقال جبريل عليه السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ؟ فكيف بترتيب سور القرآن؟ فلم يرتبها إلا بأمر الرب تعالى، ولو كان باجتهاده فقد أقره الله تعالى.

ثم يقال: هل القرآن من أمور العبادات أم من المعاملات؟ بالاتفاق أنه من أمور العبادات. حينئذ يقال: هل ترتيب قراءة جبريل للسور في العرضة الأخيرة من العبادات أم من المعاملات؟ فإن كان من العبادات ثبت حينئذ أن الترتيب في العرضة الأخيرة سنة شرعها الله تعالى.

ثم يقال: هل هذه السنة ضاعت ونسيت أم حفظها الله تعالى؟ فإن قيل: بأنها ضاعت، يقال حينئذ: بأن جزءاً من هذا الدين قد ضاع ولم يحفظ لا سيما فيما يتعلق بالقرآن! وهذا مخالف لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ ، فثبت بأن

ترتيبه من قبل الشارع.

ب- قال الشيخ محمد عبده

كان النبي ﷺ يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام واحدة من كل عام، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه بالقرآن مرتين، فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته (الأنفال والتوبة)؟ التحقيق أن وضعهما في موضعهما توقيفي وإن فات عثمان رضي الله عنه أو نسيه، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما بعد سنين من جمعه ونشره في الأقطار.

وقال الكرماني في البرهان: ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين[1].

(٦) الإجماع

أجمع الصحابة رضي الله عنهم على المصحف الذي كتب في عهد عثمان ﷺ ولم يخالف منهم أحد. وإجماعهم لا يتم إلا إذا

(١) الاتقان ٨٣/١

كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم. لكنهم لم يتمسكوا بها بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم، وعدلواعن مصاحفهم وأحرقوها، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعاً[1]، والإجماع حجة[2].

قال ابن وهب في جامعه سمعت سليمان بن بلال قال: سمعت ربيعة يسأل: لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه به، وأجمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه[3].

(٧) شدة حرص الصحابة

لقد عرف عن الصحابة رضوان الله عليهم حرصهم الشَّديد على حفظ القرآن الكريم، وكل ما يتعلق بشؤونه؛ وقد وقف أبو بكر رضي الله عنه متردداً في قضية جمعه في مكان واحد عندما اقترح عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك بعد حروب الردة خشية استشهاد

(١) الزرقاني ٣٤٧/١

(٢) الزرقاني ٣٥١/١

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير ٣٠

القراء وضياع شيء مما كتب عليه، وكذلك كان تردد زيد بن ثابت رضي الله عنه عندما أسندت إليه المهمة، وكل منهما يقول: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

فكيف يتم ترتيب المصحف باجتهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه ومن معه، ولا يسمع صوت واحد يعترضهم في ذلك؟ اللهم إلا أن يكون عن علم منهم جميعاً أن ترتيب السور في المصحف بهذا الشكل كان معلوماً للجميع أنه بتوقيف من رسول الله ﷺ[1].

(٨) مناسبة السورة للسابق واللاحق

وقال بعضهم: لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر من حكيم.

الأول: بحسب الحروف، كما في الحواميم، وذوات ﴿الٓرۚ﴾ .

الثاني: لموافقة آخر السورة لأول ما بعدها، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة.

الثالث: الوزن في اللفظة، كآخر (تبت) وأول (الإخلاص).

الرابع: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى، كالضحى وألم نشرح[2].

(١) مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم ٨١

(٢) تناسق الدرر ٧١

(٩) قرائن أخرى

ومما يدل على ذلك ويؤيده: توالي الحواميم، وذوات ﴿الٓرٓ﴾، والفصل بين المسبحات، فلم ترتب ولاءً، بل فصل بين سورها. وتقديم ﴿طسٓ﴾ النمل على القصص، حيث فصلت بها بين النظيرتين ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ الشعراء، و﴿طسٓمٓ ۝١﴾ القصص في المطلع والطول. وكذا الفصل بين الانفطار والانشقاق بالمطففين، وهما نظيرتان في المطلع والمقصد، وهما أطول منها. فلولا أنه توقيفي لحكمةٍ لتوالت المسبحات، وأخرت ﴿طسٓ﴾ عن القصص، وأخرت (المطففين) أو قدمت، ولم يفصل بين ﴿الٓرٓ﴾ بـ ﴿الٓمٓرٓ﴾[1].

«واعلم أن الأمر في ذلك كيفما قدر فلا بد من رعي التناسب، والتفات التواصل والتجاذب، فإن كان بتوقيف منه ﷺ، فلا مجال للخصم بعد ذلك التحديد الجليل والرسم، وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده فقد أعمل الكل من الصحابة في ذلك جهده، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلّم لهم في وعيه وفقهه، والعارفون بأسباب نزول الآيات، ومواقع

(١) انظر تناسق الدرر للسيوطي ٧٢، الإتقان ٨٤/١

الكلمات. وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ، وهذا قول مالك رضي الله عنه في حكاية بعضهم عنه، ومالك أحد القائلين بأن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين كما تقدم عنه، فكيف ما دار الأمر، فمنه ﷺ عرف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر، فإذاً إنما الخلاف: هل ذلك بتوقيف قولي أو بمجرد استناد فعلي بحيث بقي لهم فيه مجال للنظر؟ فهذا موضع الخلاف»[1].

(١) البرهان لابن الزبير الغرناطي ١٨٢

سادساً: اعتراضات والجواب عنها

احتج بعضهم على أن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم، وليس من الشارع الحكيم، مستدلين بالرواية عن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أنه اجتهد في ترتيبها، واستدلوا لذلك بأن الأنفال أقصر من التوبة ورتبت قبلها، وأن مصاحف بعض الصحابة تخالف ترتيب المصحف العثماني.

الجواب:

١- ضعف أثر عثمان رضي الله عنه في ترتيب سورتي الأنفال والتوبة

قال يزيد: قال لنا ابنُ عباس رضي الله عنهما: «قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة، وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ قال عثمان رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

مما يأتي عليه الزمان يُنزّل عليه من السور ذواتِ العدد، وكان إذا أُنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده، يقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، ويُنزل عليه الآياتُ فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة، وبراءة من آخِرِ القرآن، فكانت قصتها شبيهة بقصتها، فقُبض رسول الله ﷺ ولم يُبَيِّن لنا أنها منها، وظننت أنها منها، فمن ثم قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتها في الطوال»[1].

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: في إسناده نظر كثير، بل هو عندي ضعيف جداً، بل هو حديث لا أصل له. يدور إسناده في كل رواياته على «يزيد الفارسي» الذي رواه عن ابن عباس، تفرد به عنه عوف بن أبي جميلة الأعرابي. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس».

ويزيد الفارسي لم يعرفه يحيى بن سعيد القطان، وذكره البخاري أيضاً في كتاب «الضعفاء الصغير». فلا يقبل منه مثل هذا الحديث الذي ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن، الثابتة بالتواتر

(١) رواه أحمد ٥٧/١

القطعي قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف. وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه ذلك[1].

قال الشيخ العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله: «فلا يصح أن يكون ما انفرد به معتبراً في ترتيب القرآن الذي يطلب فيه التواتر». وقال: «فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر».

حكى الزرقاني: أن حديث ابن عباس هذا غير صحيح لأن الترمذي - وهو راويه - قال في تخريجه «إنه حسن غريب لا يُعرف إلا من طريق يزيد الفارسي عن ابن عباس». ويزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذي انفرد به في ترتيب القرآن[2].

ولو صحت الرواية عن عثمان رضي الله عنه فقد قال أبو جعفر بن الزبير الغرناطي: وهـذا الحديث يدل على أن تأليفَ القرآن مأخـوذ عن النبي ﷺ، وأنه مؤلف من ذلك الوقت، وإنما

(١) تعليق أحمد شاكر (١/ ٣٢٨- ٣٣١) على مسند أحمد ٣٩٩

(٢) مناهل العرفان ١/٣٥٤

جُمِع في المصحف على شيء واحد؛ لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ﷺ على تأليف القرآن. وفيه أيضاً دليل على أن سورة الأنفال سورةٌ على حدة، وليست من براءة.

٢- أما الاعتراض على ترتيبها لقصرها،

وأن سورة التوبة أطول منها، فهذا الاعتراض في غير محله. فهذه سور الحجر وإبراهيم والرعد قبل سورة النحل والإسراء اللتين هما أطول منها. وهذه سورة السجدة ولقمان والروم قبل سورة الأحزاب التي هي أطول منها جميعها. ووردت التكوير والانفطار قبل المطففين التي هي أطول منهما، وسورة العصر قبل سورة الهمزة، وقريش قبل سورة الماعون.

٣- أما ما رواه ابن أشتة في المصاحف

من طريق إسماعيل بن عياش عن حبان بن يحيى عن أبي محمد القرشي قال: أمرهم عثمان أن يتابعوا الطوال، فجعلت سورة الأنفال وسورة التوبة في السبع ولم يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم[١]، فيه إسماعيل بن عياش إذا حدث عن الشاميين فحديثه مستقيم، وإذا حدث عن غيرهم خلط، وعنده مناكير. قال

(١) الإتقان ٨٢/١

الجوزجاني: كان من أروى الناس عن الكذابين[1]. أما حبان بن يحيى فلم أجد له ترجمة. وأما أبو محمد القرشي فقد ورد في الميزان: «أبو محمد القرشي روى عن إسرائيل بخبر كذب». وهناك عدة رواة بهذه الكنية منهم: عيسى بن موسى والسكن بن المغيرة وعبيد بن سعيد الذي سمع من الثوري، وأسباط بن محمد سمع من مطرف والشيباني والأعمش.

٤- مصاحف الصحابة المخالفة للمصحف العثماني

يرد في كثير من الكتب المصنفة أن مصاحف الصحابة مخالفة للمصحف العثماني، ولكني وجدت أن أغلبها لا يصح إسناداً إليهم. من ذلك:

أ- مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه

قال ابن أشته في كتاب المصاحف: أنبأنا محمد بن يعقوب، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو جعفر الكوفي قال: هذا تأليف مصحف أبي: الحمد ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ثم يونس ثم الأنفال ثم براءة ثم هود ثم مريم ثم الشعراء ثم الحج ثم يوسف ثم الكهف ثم النحل ثم

(١) انظر التهذيب لابن حجر

الأحزاب ثم بني إسرائيل ثم الزمر أولها حم ثم طه ثم الأنبياء ثم النور ثم المؤمنون ثم سبأ ثم العنكبوت ثم المؤمن ثم الرعد ثم القصص ثم النمل ثم الصافات ثم ص ثم يس ثم الحجر ثم حمعسق ثم الروم ثم الحديد ثم الفتح ثم القتال ثم الظهار ثم تبارك الملك ثم السجدة ثم إنا أرسلنا نوحاً ثم الأحقاف ثم ق ثم الرحمن ثم الواقعة ثم الجن ثم النجم ثم سأل سائل ثم المزمل ثم المدثر ثم اقتربت ثم حم الدخان ثم لقمان ثم الجاثية ثم الطور ثم الذاريات ثم ن ثم الحاقة ثم الحشر ثم الممتحنة ثم المرسلات ثم عم يتساءلون ثم لا أقسم بيوم القيامة ثم إذا الشمس كورت ثم يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ثم النازعات ثم التغابن ثم عبس ثم المطففين ثم إذا السماء انشقت ثم والتين والزيتون ثم اقرأ باسم ربك ثم الحجرات ثم المنافقون ثم الجمعة ثم لم تحرم ثم الفجر ثم لا أقسم بهذا البلد ثم والليل ثم إذا السماء انفطرت ثم والشمس وضحاها ثم والسماء والطارق ثم سبح اسم ربك ثم الغاشية ثم الصف ثم التغابن ثم سورة أهل الكتاب وهي لم يكن ثم الضحى ثم ألم نشرح ثم القارعة ثم التكاثر ثم العصر ثم سورة الخلع ثم سورة الحفد ثم ويل لكل همزة ثم إذا زلزلت ثم العاديات ثم الفيل ثم لئيلاف قريش ثم أرأيت ثم إنا أعطيناك ثم

القدر ثم الكافرون ثم إذا جاء نصر الله ثم تبت ثم الصمد ثم الفلق ثم الناس.

أبو جعفر الكوفي وإن كان من القراء العشرة إلا أنه لم يسمع من أبي بن كعب، فسنده ضعيف معضل.

ب- مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

قال ابن أشته أيضاً: وأخبرنا أبو الحسن بن نافع أن أبا جعفر محمد بن عمرو بن موسى حدثهم قال: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سالم. حدثنا علي بن مهران الطائي، حدثنا جرير بن عبد الحميد قال: تأليف مصحف عبد الله بن مسعود، الطوال: البقرة والنساء وآل عمران والأعراف والأنعام والمائدة ويونس، والمئين: براءة والنحل وهود ويوسف والكهف وبني إسرائيل والأنبياء وطه والمؤمنون والشعراء والصافات، والمثاني: الأحزاب والحج والقصص و﴿طسٓ﴾ النمل والنور والأنفال ومريم والعنكبوت والروم ويس والفرقان والحجر والرعد وسبأ والملائكة وإبراهيم وص والذين كفروا ولقمان والزمر والحواميم: حم المؤمن والزخرف والسجدة وحمعسق والأحقاف والجاثية والدخان والممتحنات إنا فتحنا لك والحشر

وتنزيل السجدة والطلاق ون والقلم والحجرات وتبارك والتغابن وإذا جاءك المنافقون والجمعة والصف وقل أوحي وإنا أرسلنا والمجادلة والممتحنة ويا أيها النبي لم تحرم. والمفصل: الرحمن والنجم والطور والذاريات واقتربت الساعة والواقعة والنازعات وسأل سائل والمدثر والمزمل والمطففين وعبس وهل أتى والمرسلات والقيامة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت والغاشية وسبح والليل والفجر والبروج وإذا السماء انشقت واقرأ باسم ربك والبلد والضحى والطارق والعاديات وأرأيت والقارعة ولم يكن والشمس وضحاها والتين وويل لكل همزة وألم تر كيف ولإيلاف قريش وألهاكم وإنا أنزلناه وإذا زلزلت والعصر وإذا جاء نصر الله والكوثر وقل يا أيها الكافرون وتبت وقل هو الله أحد وألم نشرح، وليس فيه الحمد ولا المعوذتان[1].

جرير بن عبد الحميد لم يسمع من ابن مسعود رضي الله عنه، فالإسناد ضعيف معضل.

(١) الإتقان ٨٥- ٨٦

٥- الجواب عمن احتج باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة رضي الله عنهم

أما فيما يتعلق باختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة، فيجاب عنه بما يلي:

أ- أنهم اختلفوا فيما اختلفوا قبل أن يعلموا التوقيف فيه. ولما جمع عثمان رضي الله عنه القرآن على هذا الترتيب علموا ما لم يكونوا يعلمونه، ولذلك تركوا ترتيب مصاحفهم، وأخذوا بترتيب عثمان.

ب- ويهوِّن الأمرَ في اختلاف مصاحفهم أنها كانت مصاحف فردية، لم يكونوا يكتبونها للناس، إنما كانوا يكتبونها لأنفسهم. فبدَهيٌّ أن الواحد منهم لم يُثبت فيها إلا ما وصل إليه بمجهوده الفردي، وقد يفوته ما لم يفت سواه من تحقيق أدق أو علم أوسع.

ج- ولهذا كان يوجد بتلك المصاحف الفردية بعض آيات قد تكون منسوخة، وربما لم يبلغ صاحب ذاك المصحف نسخها.

د- وقد يهمل صاحب المصحف إثبات سورة لشهرتها وغناها بهذه الشهرة عن الإثبات، كما ورد أن مصحف ابن مسعود رضي الله عنه لم تكن به الفاتحة ولا المعوذتان.

هـ- وقد يكتب صاحب المصحف ما يرى أنه بحاجة إليه من غير القرآن في نفس المصحف كما روي أن بعض الصحابة كان قد كتبه

بمصحفه دعاءً وسماه سورة الخلع والحفد. ولهذا لما اجتمعت الأمة على ترتيب عثمان رضي الله عنه أخذوا به وتركوا مصاحفهم الشخصية[1].

و- لأن مصاحف الصحابة كانت مصاحف شخصية لم يحاولوا أن يلزموا بها أحداً، ولم يدّعوا أن مخالفتها محرمة.

ز- ولو كانوا يرون أن ترتيب المصحف اجتهادي لدعوا إلى التمسك بترتيبهم الخاص ولم يتنازلوا عنه، بينما قراءة حفص عن عاصم ينتهي السند فيها إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) انظـــر: مناهل العرفان الزرقاني ٣٥٣/١، مباحث التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم ٧٨-٧٩

سابعاً: العلماء الذين قالوا بأن ترتيب السور توقيفي

وممن قال بأن ترتيب السور توقيفي أي أن الله تعالى هو الذي رتبه أبو بكر الأنباري والباقلاني والكرماني والطيبي وابن الحصار وأبو جعفر النحاس، وآخرون قالوا بأنها كلها إلا التوبة والأنفال كالبيهقي والسيوطي. وآخرون قالوا بأن أغلبها توقيفي ابن عطية وابن الزبير الغرناطي وابن حجر والسيوطي[1].

لذا قال أبو بكرالأنباري: اتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن[2].

والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) تناسق الدرر للسيوطي ٦٨-٧٢، البرهان للزركشي ١/٢٥٧- ٢٦٠

(٢) البرهان للزركشي ١/٢٦٠

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي. دار المعرفة- بيروت.

٣- أسد الغابة في معرفة الصحابة. علي بن محمد بن الأثير. دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٤- بدائع التفسير لابن قيم الجوزية. جمع يسري السيد محمد. دار ابن الجوزي.

٥- البرهان في تناسب سور القرآن. أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي. تحقيق د. سعيد بن جمعة الفلّاح. دار ابن الجوزي.

٦- البرهان في علوم القرآن. محمد بن عبد الله للزركشي. دار الجيل- بيروت.

٧- التحرير والتنوير. محمد الطاهر ابن عاشور.

٨- تفسير البيضاوي. تحقيق عبد الرزاق المهدي. دار الكتب العلمية.

٩- تفسير الجلالين. لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي. دار الكتب العلمية.

١٠- تفسير الفخر الرازي.

١١- تفسير القرآن العظيم. إسماعيل بن عمر بن كثير.
١٢- تفسير الكشاف. جار الله محمود الزمخشري. دار الباز.
١٣- تفسير المراغي. تخريج باسل عيون السود. دار الكتب العلمية.
١٤- تفسير المنار، محمد رشيد رضا.
١٥- تناسق الدرر. طبع باسم: أسرار ترتيب القرآن. جلال الدين السيوطي. تحقيق عبدالقادر أحمد عطا- دار الاعتصام.
١٦- تهذيب التهذيب. أحمد بن حجر العسقلاني. دار صادر- بيروت.
١٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. بعناية سعد بن فواز الصَّميل، دار ابن الجوزي
١٨- جامع البيان في تفسير القرآن. محمد بن جرير الطبري. دار المعرفة.
١٩- الجامع الصحيح محمد بن عيسى الترمذي- المكتبة الإسلامية.
٢٠- الجامع لأحكام القرآن، المعروف بتفسير القرطبي. محمد بن أحمد القرطبي. تحقيق سالم البدري. دار الكتب العلمية.
٢١- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي. تحقيق عبد الرزاق المهدي. دار الكتب العلمية.
٢٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
٢٣- سنن ابن ماجه. محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٢٤- سنن أبي داود. سليمان بن الأشعث السجستاني، تعليق عزت الدعاس، توزيع عادل السيد- حمص.
٢٥- صحيح البخاري. دار السلام للنشر والتوزيع- الرياض.
٢٦- صحيح مسلم بن الحجاج. دار السلام للنشر والتوزيع- الرياض.
٢٧- صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين مخلوف. وزارة الأوقاف الكويتية.
٢٨- في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق.
٢٩- الفتوحات الإلهية. سليمان بن عمر الجمل. دار الكتب العلمية.
٣٠- مباحث في التفسير الموضوعي. د. مصطفى مسلم. دار القلم- دمشق.
٣١- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح.
٣٢- مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي.
٣٣- مختصر سنن أبي داود للمنذري. مع معالم السنن للخطابي، وتهذيب ابن القيم. تحقيق أحمد شاكر، ومحمد حامد الفقي. دار المعرفة- بيروت.
٣٤- مسند أحمد بن حنبل- دار صادر.
٣٥- مسند أحمد بن حنبل. تحقيق أحمد شاكر. دار المعارف- مصر.
٣٦- مقدمة تفسير ابن كثير. مطبوع مع التفسير.
٣٧- مناهل العرفان في علوم القرآن. محمد بن عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء

الكتب العربية، البابي الحلبي.
٣٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق عبد الرزاق المهدي. دار الكتب العلمية.

* * *

صدر للمؤلف

❑ **القرآن**

- أسرار جمالية قرآنية .
- المِلاك لمعرفة عجائب وأسرار الآيات المتشابهة .
- المختصر من نثر الماس والدرر في طرق البحث عن مقاصد السور .
- نظم الماس والدرر في معرفة مقاصد السور ، من الصافات إلى الحجرات .
- من لطائف اللفظ ونواعم اللحظ في مقاصد سورة الكهف وقراءتها يوم الجمعة.

❑ **العقيدة**

- حياة الأرواح في ثمرات الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى .
- رحلة حب الى الله .
- براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف في الاعتقاد .
- إلهي يا شوق .

❑ **الفقه والحديث**

- عدم حجية رواية عبد الله بن شقيق في إجماع الصحابة على كفر تارك الصلاة ، دراسة حديثية وأصولية .
- قواعد وضوابط فقهية وأصولية في أحكام الحج .
- مسائل خلافية في الحج .
- هل أخطأ من أخذ بقول الإمام مالك: لا خصوصية لشوال بصيام الست؟.

❑ **العلاقات الزوجية**

- القواعد المفيدة للحياة الزوجية السعيدة.
- قد شغفها حبا.
- كيف تحولين الزوج الغاضب إلى محب عاشق .
- هكذا استسلم زوجي العنيد لرأيي .

❊ ❊ ❊

فهرس المحتويات

- المقدمة ٥
- ترتيب سور القرآن توقيفي ٨
- خطة الكتاب ٩
- مقاصد الكتاب ١١
- مقصد سورة الفاتحة ١١
- مقصد سورة البقرة ١٢
- مقصد سورة آل عمران ١٣
- مقصد سورة النساء ١٣
- مقصد سورة المائدة ١٥
- مقصد سورة الأنعام ١٥
- مقصد سورة الأعراف ١٦
- مقصد سورة الأنفال ١٧
- مقصد سورة التوبة ١٨
- مقصد سورة يونس ١٩
- مقصد سورة هود ٢١
- مقصد سورة يوسف ٢٢

- مقصد سورة الرعد ٢٢
- مقصد سورة إبراهيم ٢٣
- مقصد سورة الحجر ٢٤
- مقصد سورة النحل ٢٥
- مقصد سورة الإسراء ٢٦
- مقصد سورة الكهف ٢٧
- مقصد سورة مريم ٢٧
- مقصد سورة طه ٢٨
- مقصد سورة الأنبياء ٢٨
- مقصد سورة الحج ٢٩
- مقصد سورة المؤمنين ٣٠
- مقصد سورة النور ٣٠
- مقصد سورة الفرقان ٣١
- مقصد سورة الشعراء ٣١
- مقصد سورة النمل ٣٢
- مقصد سورة القصص ٣٣
- مقصد سورة العنكبوت ٣٣
- مقصد سورة الروم ٣٤
- مقصد سورة لقمان ٣٥
- مقصد سورة السجدة ٣٥

- مقصد سورة الأحزاب ٣٦
- مقصد سورة سبأ ٣٧
- مقصد سورة فاطر ٣٨
- مقصد سورة يس ٣٩
- مقصد سورة الصافات ٣٩
- مقصد سورة ص ٤٠
- مقصد سورة الزمر ٤١
- مقصد سورة غافر ٤١
- مقصد سورة فصلت ٤٢
- مقصد سورة الشورى ٤٣
- مقصد سورة الزخرف ٤٣
- مقصد سورة الدخان ٤٤
- مقصد سورة الجاثية ٤٤
- مقصد سورة الأحقاف ٤٤
- مقصد سورة محمد ٤٥
- مقصد سورة الفتح ٤٦
- مقصد سورة الحجرات ٤٦
- مقصد سورة ق ٤٧
- مقصد سورة الذاريات ٤٨
- مقصد سورة الطور ٥٠

- مقصد سورة النجم ٥٠
- مقصد سورة القمر ٥١
- مقصد سورة الرحمن ٥٢
- مقصد سورة الواقعة ٥٣
- مقصد سورة الحديد ٥٣
- مقصد سورة المجادلة ٥٤
- مقصد سورة الحشر ٥٦
- مقصد سورة الممتحنة ٥٦
- مقصد سورة الصف ٥٧
- مقصد سورة الجمعة ٥٨
- مقصد سورة المنافقين ٥٩
- مقصد سورة التغابن ٦٠
- مقصد سورة الطلاق ٦٠
- مقصد سورة التحريم ٦١
- مقصد سورة الملك ٦٢
- مقصد سورة القلم ٦٣
- مقصد سورة الحاقة ٦٣
- مقصد سورة المعارج ٦٤
- مقصد سورة نوح ٦٤
- مقصد سورة الجن ٦٤

- مقصد سورة المزمل ٦٥
- مقصد سورة المدثر ٦٥
- مقصد سورة القيامة ٦٦
- مقصد سورة الإنسان ٦٦
- مقصد سورة المرسلات ٦٧
- مقصد سورة النبأ ٦٨
- مقصد سورة النازعات ٦٩
- مقصد سورة عبس ٦٩
- مقصد سورة التكوير ٧٠
- مقصد سورة الانفطار ٧١
- مقصد سورة المطففين ٧١
- مقصد سورة الانشقاق ٧٢
- مقصد سورة البروج ٧٣
- مقصد سورة الطارق ٧٤
- مقصد سورة الأعلى ٧٤
- مقصد سورة الغاشية ٧٥
- مقصد سورة الفجر ٧٥
- مقصد سورة البلد ٧٦
- مقصد سورة الشمس ٧٦
- مقصد سورة الليل ٧٦

- مقصد سورة الضحى ٧٧
- مقصد سورة الشرح ٧٧
- مقصد سورة التين ٧٧
- مقصد سورة العلق ٧٨
- مقصد سورة القدر ٧٨
- مقصد سورة البينة ٧٩
- مقصد سورة الزلزلة ٧٩
- مقصد سورة العاديات ٨٠
- مقصد سورة القارعة ٨٠
- مقصد سورة التكاثر ٨٠
- مقصد سورة العصر ٨١
- مقصد سورة الهمزة ٨١
- مقصد سورة الفيل ٨١
- مقصد سورة قريش ٨١
- مقصد سورة الماعون ٨٢
- مقصد سورة الكوثر ٨٢
- مقصد سورة الكافرين ٨٢
- مقصد سورة النصر ٨٣
- مقصد سورة المسد ٨٣
- مقصد سورة الإخلاص ٨٣

- مقصد سورة الفلق ٨٣
- مقصد سورة الناس ٨٤

رسالة مختصرة في بيان أن ترتيب السور توقيفي والحكم المستفادة من ذلك

- **أولًا: تناسب سور القرآن ٨٧**
- **ثانياً: المؤلفات في تناسب السور ٨٨**
- **ثالثاً: الحكم والفوائد من ترتيب السور ٨٩**

١- يبرز جانباً من إعجاز القرآن الكريم ٨٩

٢- المناسبة تلقي ضوءاً على مقصد السور ٨٩

٣- معرفة أصول دعوة الإسلام ٩٠

٤- معرفة المراحل التي ينبغي أن تسير فيها الدعوة إلى الله تعالى ٩٠

٥- تعليق الأسباب بنتائجها، ومعرفة المصائب وعلاجها ٩١

- **رابعاً: أنواع المناسبات ٩٢**

١- المناسبة بين آخر السورة وأول السورة التي بعدها ٩٢

٢- السورة بأكملها تفصيل لما قبلها ٩٣

٣- مكملة لما قبلها ٩٣

٤- تكون علة لما قبلها ٩٤

٥- مناسبة أول السورة وخاتمة ما بعدها ٩٤
• **خامساً: ترتيب سور القرآن توقيفي ٩٦**
١- ورود ترتيب بعض السور نصاً ٩٧
٢- تحزيب القرآن ٩٨
٣- ترتيب الأقسام الأربعة توقيفي ٩٩
فائدة: ١٠٠
٤- الإجماع على ترتيب الأقسام ١٠١
٥- العرضة الأخيرة ١٠١
٦- الإجماع ١٠٣
٧- شدة حرص الصحابة ١٠٤
٨- مناسبة السورة للسابق واللاحق ١٠٥
٩- قرائن أخرى ١٠٦
• **سادساً: اعتراضات والجواب عنها ١٠٨**
١- ضعف أثر عثمان رضي الله عنه في ترتيب سورتي الأنفال والتوبة .. ١٠٨
٢- أما الاعتراض على ترتيبها لقصرها ١١١
٣- أما ما رواه ابن أشتة في المصاحف ١١١
٤- مصاحف الصحابة المخالفة للمصحف العثماني ١١٢
أ- مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه ١١٢
ب- مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ١١٤

٥- الجواب عمن احتج باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة ﷺ ١١٦

- **سابعاً: العلماء الذين قالوا بأن ترتيب السور توقيفي ١١٨**
- **المراجع ١٢١**
- **ضدر للمؤلف ١٢٥**
- **الفهرس ١٢٧**

تم الإخراج بشركة غراس للطباعة والنشر والتوزيع
- هاتف ٢٤٨١٩٠٣٧ - فاكس ٢٤٨٣٨٤٩٥
بدالة المطبوعات 24810010 - الكويت